

السُّلْطَانُ
عَبْدُ الحَمِيدِ الثَّانِي

مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية

د. سيف الله آرْباجي

دار النيل

السُّلطانُ
عبدُ الحميدِ الثاني

لا شك أن عبد الحميد الثاني هو البطل الرئيسي بلا نزاع في أواخر عهد الدولة العثمانية. وانطلاقا من هذه النقطة، يتحتم علينا أن نَعرفه ونُعرّفه في أحسن شكل. إننا نعرف أن التاريخ دائماً مليء بالعبر. فالإنسانية تستطيع أن تنجح وأن تقف على قدميها بقدر ما تشبعت به من نتائج التجارب التي عاشها من سبق. أما الفترة التي نعتزم الكتابة عنها، فهي فترة مليئة بالتجارب. باختصار فإن عبد الحميد الثاني، والفترة التي حكم فيها، لهي درة مليئة بالخبرات والعبر ظلت راقدة في أعماق بحر التاريخ.

إن الدول والمؤسسات ترتقي بالكوادر المناسبة، والتي تبذل كل ما في وسعها لخدمة القضية، والتي تعبّر عن أفكارها بوضوح عندما يقتضي الأمر. إن الكوادر القوية، والوزراء الأكفاء، والمساعدين المخلصين لهم كنز نادر. وأي قائد يُحرم من مثل هذا الكنز يتعسر عليه النجاح. ولقد نجح السلطان عبد الحميد الثاني -ولو جزئيا- في اجتياز هذه المعضلة؛ إنه أحد القادة النادرين الذي استطاعوا وقت الأزمات أن يحافظوا على عزة الأمة ومجدها في أبهى شكل.


ISBN 978-975-315-383-6
9789753 153836
www.daralnile.com



السُّلْطَانُ

عَبْدُ الحَمِيدِ الثَّانِي



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م

تحرير

أجير أشيوك

مراجعة

ياوز آجار

مراجعة لغوية

أديب الدباغ

تصميم

أسيد الصالحي

غلاف

مراد عرباجي

رقم الإيداع: ISBN: 978-975-315-383-6

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 5221144 Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

السُّلطَانُ

عَبْدُالحَمِيدِالثَّانى

مشاريعه الإصلاحية وإنجازاته الحضارية

تأليف

د. سيف الله آرْباجي

ترجمة

عبير سليمان

دار النيل


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

حياة السلطان عبد الحميد خان الثاني

(١٨٤٢-١٩١٨)

خدمات السلطان عبد الحميد خان الثاني

نظرة عامة على الدولة العثمانية

في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦م-١٩٠٨م)

المصادر

مقدمة

إن مهمة التاريخ بين العلوم الاجتماعية هي: توعية المجتمعات بطرح أسئلة مثل: "من أين جاؤوا، وإلى أين يصيرون، وما هي المواقف التي يجب عليهم أن يتخذوها تجاه الأحداث؟". ولهذا السبب تلعب الأبحاث التاريخية دوراً في غاية الأهمية في تشكيل السياسات الثقافية والنهوض بالمجتمعات. فالتاريخ هو علم التغيّر والتقدم والتنمية. وهناك دروس عديدة يمكن استنباطها من التاريخ في هذا المضمار.

مرة أخرى لا بد من دراسة الأحداث التاريخية على أنها مصدر للمعرفة والتوعية أكثر من كونها وسيلة لتبرئة الأيدولوجيات أو وجهات النظر التي ندافع عنها. عندئذ فقط يمكن للتاريخ أن يحقق وظيفته المنشودة في الوصول إلى الأهداف المذكورة آنفا.

إن التاريخ ليحفل بمئات النماذج من قادة الأمة؛ ولا يمكننا استخلاص العبر منهم والاستفادة منهم على وجه ينفع الإنسانية إلا إذا تسنى لنا تناولهم من وجهة نظر محايدة. ولعل من أكثر القادة شعبية على مدار تاريخ الدولة العثمانية الذي استمر ٦٢٣ سنة هو السلطان عبد الحميد الثاني.

لا شك أن السلطان عبد الحميد الثاني هو أكثر سلطان عثماني أثير من

حوله الجدل، وأكثر من تناولته الدراسات والأبحاث،(*) وتركز الجدال حول شخصيته، وبصفة خاصة حول الأحداث الهامة جدا التي ظهرت خلال فترة حكمه. حيث كانت فترته مليئة بالاضطرابات والأزمات، تجاهد فيها الدولة العثمانية -والتي كانت تعيش أيامها الأخيرة- لتستعيد قوتها حتى تواكب الحضارة والتقدم الغربي والتطور الذي طرأ على الصناعة، بالإضافة إلى ظهور عدة تيارات فكرية تهدف إلى إنقاذ الدولة، وكثيراً ما اختلفت تلك التيارات مع بعضها البعض...

إن الدول والمؤسسات ترتقي بالكوادر المناسبة، والتي تبذل كل ما في وسعها لخدمة القضية، والتي تعبّر عن أفكارها بوضوح عندما يقتضي الأمر. إن الكوادر القوية، و الوزراء الأكفاء، والمساعدين المخلصين لهم كنز نادر. وأي قائد يُحرم من مثل هذا الكنز يتعسر عليه النجاح. ولقد نجح السلطان عبد الحميد الثاني -ولو جزئيا- في اجتياز هذه المعضلة؛ إنه أحد القادة النادرين الذي استطاعوا وقت الأزمات أن يحافظوا على عزة الأمة ومجدها في أبهى شكل.

تتضح لنا مدى مهارته كرجل يعرف كيف يسيطر على الأحداث، وتتوفر لنا الفرصة لمعرفته على حق في ضوء كلماته حيث يقول: "الذين يعون

(*) ملحوظة: هذا التعبير ظهر في كل الأوساط حتى وقت قريب وظل كأنه مجرد ادعاء. ولكن كاتبنا في هذا الصدد، أثبت أن السلطان عبد الحميد هو أكثر حاكم تناولته الأقلام، وأنه من خلال دراسته عنه في أطروحة الماجستير، قد أعد قائمة مفصلة بكل الأعمال التي كتبت عنه في كل بقاع الدنيا حتى يومنا هذا سواء كانت باللغة التركية أو بلغات أخرى عديدة مثل (كتب، مقالات، رسائل ماجستير و دكتوراة، مذكرات، مؤتمرات، حلقات النقاش، ندوات إلخ). وألحق بكتابنا الرسمُ البياني والتقدير العددي للأعمال المكونة من ٤٠٩ عملاً عبارة عن ٥٦٤ كتاباً و٩٣٤ مقالاً. للوقوف على التفصيلات انظر رسالة الماجستير التي قدمها المؤلف بعنوان:

(Seyfullah ARPACI, Sultan II. Abdülhamid Bibliyografyası, Yüksek Lisans Tezi, Erciyes Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, Kayseri 2003).

التاريخ العثماني يدركون أنِ هذه الدولة قامت على العدل ولم تقم على القوة. إذا أحل الجيش العثماني الظلم أينما ذهب مكان العدل، تفتت في الحال بذرة هذه الإمبراطورية قبل أن تنبت. فالعدل هو أساس الشرعية. والشرعية هي دعامة السلطة. والقوة هي مؤازر الشرعية. وعليه فإن القوة يجب أن تعتمد على الشرعية، ويجب أن تعتمد السلطة على العدل. فكل من يسعى نحو استخدام السلطة بلا عدل، والقوةِ بلا شرعية، تكون عاقبته الفناء. فإذا استخدم الجيش قوته داخل الإطار المخصص له فهذا أمر مشروع، أما إذا انزلق بها لاستخدامها في غير الغرض المنوط به فهو أمر غير مشروع. فربما يحطم بقوته بعض الأشياء، ويحرقها ولكن في النهاية سيحطم نفسه أيضا. ومع الأسف تنهار الدولة أيضا تحت هذه الأنقاض".

لا شك أن عبد الحميد الثاني هو البطل الرئيسي بلا نزاع في أواخر عهد الدولة العثمانية. وانطلاقا من هذه النقطة، يتحتم علينا أن نَعرفه ونُعّرفه في أحسن شكل. إننا نعرف أن التاريخ دائماً مليء بالعبر. فالإنسانية تستطيع أن تنجح وأن تقف على قدميها بقدر ما تشبعت به من نتائج التجارب التي عاشها من سبق. أما الفترة التي نعتزم الكتابة عنها، فهي فترة مليئة بالتجارب. باختصار فإن عبد الحميد الثاني، والفترة التي حكم فيها، لهي درة مليئة بالخبرات والعبر ظلت راقدة في أعماق بحر التاريخ.

لا يسعنا هنا إلا استخلاص العبر بأجمل شكل، ودراسةُ ونقلُ خلاصة التجارب العميقة التي خرجت من معمل السلطان عبد الحميد الثاني إلى الأجيال القادمة من جهة، وإلى من يحكمون الدولة ومثقفي اليوم من جهة أخرى.

يقال: إن الإنسان اتعظ من الماضي... يا لها من مقولة!

قصة خمسة آلاف سنة هل أعطت نصف موعظة؟

وَصَفوا التاريخ بأنه يكرر نفسه،

هل كان يتكرر لو اتعظ من قرأه؟

إن شاعر النشيد الوطني التركي محمد عكف هو الذي قال أحسن القول في هذا المضمار في الأبيات المذكورة، فهل هناك من داع لمزيد من القول!

نتمنى أن نكون قد أسهمنا ولو بالقليل في الدراسات التي تناولت التعريف بالسلطان عبد الحميد الثاني، وأن يجد الحق مكانه. ولعل شهادتنا تترك في القلوب أثراً طيباً بقدر المتاعب التي واجهتنا في الطريق. ولعل مؤرخي المستقبل يصلون بهذه الأدلة التي نعرضها إلى الحقائق التي يبحثون عنها إن شاء الله في سرداب التاريخ العامر بالأسرار.

أخيراً، فإنني أدين بالشكر إلى كل من السيد "طه أَقْيُولْ" الكاتب والصحفي ورجل الفكر المستنير، وكذلك أستاذي العظيم "متين هولاغو" الأستاذ المساعد، اللذَين لم يدخرا جهدا ودعماً مادياً أو معنويا في اختيار الموضوع، وإعداده، ونقده ومراجعته، حتى يظهر هذا العمل على أفضل وجه. وكذلك أدين بالشكر إلى زوجتي المؤرخة "نوراي هانم" على دعمها المعنوي في كل مراحل هذه الدراسة، وقيامها بتقويم المصادر ومراجعتها، والتصحيح اللغوي.

سيف الله أرباجي

إسطنبول ٢٠٠٤م

مدخل

أكثر سلطان عثماني أثير حوله الجدل، وتناولته مناقشات عديدة هو -بلا شك- السلطان عبد الحميد الثاني؛ فقد اعتلى العرش في أكثر فترات التاريخ العثماني صعوبة وتعقيدا، وكان موقفه إزاء الأحداث الهامة اجتماعيا واقتصاديا وسياسياً التي واكبت فترة حكمه، محط الاهتمام -أكثر من مميزات شخصيته- سواء بالمدح أو بالنقد الشديد.

اليوم يمكن التغاضي عن الجدل المحيط بشخص السلطان عبد الحميد الثاني سواء أكان جدالاً يمتدحه أو يتهمه. ولكن فترة حكمه التي استمرت ٣٣ سنة وغطت فترة تاريخية ضخمة لهي فترة لا يمكن تجاهلها، حيث ظهر فيها تيار "الإسلامية" و"التركية" في مواجهة التيارات الفكرية الغربية التي اشتدت قوتها، مع زيادة المكائد السياسية، كما وصلت فيها ضغوط الدول الغربية النفسية والسياسية على الدولة العثمانية إلى ذروتها، وأخذ مثقفونا يقيمون بدقة حركة التغريب التي بدأت مع "التنظيمات" وتوهجت مع "المشروطية" واكتسبت قوة مع تيار "الجمهورية".

مرة أخرى فإن أسس التطورات الثقافية والسياسية التي نعيشها اليوم لا بد من البحث عن جذورها في التاريخ القريب. ومن هنا تعد فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني أهم معالم التاريخ الحديث.

لقد تكثف الجدال حول السلطان، وبشكل خاص حول بعض الأحداث ذات الأهمية القصوى التي ظهرت في عهده. حيث كانت فترة

حكمه مكتظة بالأزمات والكروب، وكانت الدولة العثمانية تعيش أيامها الأخيرة، وكافحت كي تسترد قوتها في مواجهة الحضارة والتقدم الغربي الكبير، مع ظهور الثورة الصناعية، فضلاً عن التيارات الفكرية العديدة التي تولدت لتحقيق تلك الغاية، والتي كثيرا ما كان الخلاف يدب بينها.

كانت الدولة العثمانية وقت تولي السلطان عبد الحميد العرش غارقة داخلياً وخارجياً في الأزمات. وبلغت الأزمة المالية إلى مستوى لا طاقة للدولة بها. ومن جهة أخرى بدأت أوروبا البحث من جديد عن قوى تُحقق التوازن وكأنها تغير قشرتها. لذا زاد حجم ضغوط الدول الأوروبية على الدولة العثمانية. أما في العاصمة إسطنبول فإن الأوساط السياسية كانت تعتقد أن وجود نظام دستوري سيخفف من ضغوط أوروبا السياسية.[١]

وفيما يلي السياسة التي أعدها ومارسها السلطان عبد الحميد الثاني على نحو مختصر:

اتبع سياسة التوازن في التعامل مع الغرب، واستخدم الدول الأوروبية ضد بعضها البعض، وكان عنصر "التوازن" دائما يتصدر خطته. أما في التعامل مع الشرق فقد اتبع السياسة الإسلامية، وأعطى أولوية كبيرة لمسألة "الخلافة"، واجتهد في تعظيم صفتها، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل تحقيق هذا الهدف؛ فأرسل العلماء ونسخاً من القرآن الكريم إلى الهند واليابان لنشر الإسلام، وكرد فعل يرد به على النشاط التبشيري الذي يقوم به البابا.[٢]

عموماً كان بارعاً في السياسة الداخلية إلى جانب مهارته في السياسة

1 Levon Panos Dabağyan; Sultan II.Abdülhamid ve Ermeni Meselesi, Kum Saati Yayınları, Istanbul 2001, s. 16

2 Dabağyan; a.g.e., s. 17

الخارجية والتي كانت عبارة عن البحث عن علاج ينقذ الدولة العثمانية التي كانت على فراش المرض من الداخل، ويجعلها ترتاح لتلتقط أنفاسها، مستمرا في إشعال التنافس بين الدول الإمبريالية، وإغراقها في الخلاف، وتحريض بعضها على بعض، بالإضافة إلى استغلال نقاط الضعف في أمورها الداخلية والخارجية لينتصر عليها.

أما أسس السياسة الداخلية فهي باختصار على النحو التالي:

تطهير الوطن من الآراء والأفكار الفاسدة المنتشرة بداخلها، وتخليص الرعية الجهلاء من الأمية، وتحصيل العلم والتقدم عن الغرب بما يتفق وقيَم المجتمع العثماني السليمة، مع عزل الشعب بعيداً عن القيم الغربية الأخرى، وإعادة الدولة العثمانية لمجدها القديم، وتدريب الموظفين المخلصين، وتعيين ذوي الكفاءات وأصحاب القيم العلمية والوطنية والأخلاقية في بنية الدولة والحكومة.

حياة
السلطان عبد الحميد خان الثاني

(١٨٤٢-١٩١٨)

أ. نشأته وتوليه العرش

ولد السلطان عبد الحميد الثاني خان في ٢١ سبتمبر عام ١٨٤٢م في قصر "جيراغان" من الزوجة الرابعة للسلطان "عبد المجيد" وتدعى "تيرِموجْغان" (Tir-i müjgan) الشركسية الأصل. توفيت والدته وهو في العاشرة من عمره. فعهد به والده السلطان "عبد المجيد" في هذه السن إلى زوجته العاقر "برستو" (Perestu). وظل تحت رعايتها. ويقول هو نفسه عنها: إنه تربى على يد أم حنون بحق. لذا خلع عليها لقب "السلطانة الوالدة" عند توليه العرش بعد ٢٨ سنة.[1]

تلقى الأمير عبد الحميد الثاني، الذي عاصرت طفولته وصباه أزهى سنوات فترة التنظيمات،[2] تعليماً خاصاً مع شقيقه "مراد الخامس". وطبقا لتقاليد القصر المعتادة، تلقى تعليمه الأول على يد أساتذة متخصصين

1 Ahmed Akgündüz; Bilinmeyen Osmanlı, OSAM Yayınları, Istanbul 1999, s. 265-267

2 Engin Akarlı; "II. Abdülhamid: Hayatı ve Iktidarı", Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 2, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, s. 253-264

مشهورين بإلمامهم التام بأمور الدولة وعلومهم الغزيرة. وكان شديد الذكاء، يتمتع بذاكرة قوية جدا، وكان يسعد كثيرا بممارسة الأعمال اليدوية.[١] وتعلم اللغة التركية على يد "كَرْدَانْقِيرانْ عمر"، والفارسية على يد "علي مَحْوي أفندي" والعربية وعلوماً أخرى على يد "فريد أفندي"، و"شريف أفندي"، والتاريخ العثماني من كاتب الوقائع "لطفي أفندي"، وتعلم الفرنسية مع كل من "أدهم" و"كمال" باشا وأحد الفرنسيين ويدعى "كاردت".

وتلقى الموسيقى والبيانو من الإيطاليَين "غواتَلِي" و"لومباردي". ولديه كذلك جانب شعري إذا تأملنا الأشعار التي كتبها حتى لو كانت قطعة أو قطعتين.[٢]

اعتلى السلطان عبد الحميد خان الثاني عرش الدولة العثمانية يوم الخميس ٢١ من أغسطس عام ١٨٧٦م، بناء على وعد بينه وبين "مدحت باشا" ورفقائه الذين كانوا يطالبون بفتح مجلس المبعوثان وإعلان الدستور وترسيخِ حكم دستوري يدعمه القانون، ولهذا السبب خلعوا كلاً من السلطان "عبد العزيز" و"مراد الخامس" عن العرش.

وكان ترتيبه بين السلاطين العثمانيين ٣٦ إذا أخذنا في الاعتبار كلاً من الأمير "سليمان" والأمير "موسى جلبي" الذين أعلنا سلطنتهما فى عهد "الفترة"، وإن لم نعتبرهما فترتيبه ٣٤.

تمت مراسم "حفل الجلوس"[٣] في ٣١ أغسطس عام ١٨٧٦م، في تمام الساعة ١٢ ظهراً، حيث اعتلى كرسي العرش الذهبي في قصر "طوب

1 Kemal H. Karpat; Islâmın Siyasallaşması, Istanbul Bilgi Üniversitesi Yayınları, Istanbul 2004, s. 292

2 Cevdet Küçük; "II. Abdülhamid", DIA, Cilt 1, TDV Yayınları, Istanbul 1993, s. 223-224

٣ حفل اعتلاء الحكام للعرش

قابي". وطبقاً للعُرف تم ربط سيف على خصره، ثم توجه مع "جماعة حملة السيف" يوم الأربعاء ٧ سبتمبر عام ١٨٧٦م إلى حي "أيوب" بالمركبة السلطانية. ثم ذهب إلى قصر "طوب قابي" وهو يمتطي حصاناً. ومن هناك مر بالمركبة السلطانية أيضا على قصر "ضُولْمَه باغْجَه" وعند عودته -وكما تقتضي العادة- قام بزيارة بعض قبور أجداده، وقام بتوزيع الصدقات. وفي يوم ١٤سبتمبر ذهب إلى "سَرْ عَسْكَرْلِقْ" :القيادة العامة (جامعة إسطنبول حالياً)، وتناول الطعام مع ضباط البحرية. وألقى هناك خطبة، وعقّب المشير "رادف" باشا على خطبته.

وفي مساء يوم ١٥ سبتمبر تناول الطعام في قصر "يِلْدِزْ" مع الوزراء ورجال الدولة ورجال القصر. وألقى خطبة عن حتمية أن ينسى جميع الحاضرين كل خلافاتهم، وأن يوجهوا جهدهم فقط لخدمة الدولة. وذهب يوم ١٨ سبتمبر إلى "هيئة الرقابة البحرية" في منطقة "قاسم باشا"، وتناول الطعام مع "الأَميرْآلايات" والضباط من نفس أوانيهم. وفي يوم ٥ أكتوبر زار "المشيخة"[١] وتناول الإفطار مع السادة العلماء. وفي ٩ نوفمبر سأل "حيدر باشا" عن حالة الجنود المصابين في المستشفى العسكري. وصاحَب الأمراء والمحافظين في نزهات بحرية في بحر مرمرة والبوسفور والبحرالأسود. وصلى مع العامة في المساجد.

وهكذا لمع السلطان كحاكم ديموقراطي لم يُر مثله من قبل.[٢] وتحتل فترة توليه الحكم كحاكم من سلاطين آل عثمان -التي استمرت ٣٢ سنة و٧ أشهر، و٢٧ يوماً- من حيث طول المدة المركزَ الخامس بعد السلطان "سليمان القانوني"، و"عثمان الغازي"، و"محمد الرابع"، و"أورخان الغازي".

---

١ مكان تواجد شيوخ الإسلام

2 Yılmaz Öztuna; Büyük Türkiye Tarihi, Cilt 7, Ötüken Yayınları, s.133-134

بينما تحتل فترة حكم السلطان "محمد الفاتح" المركز السادس.

اتسمت فترة حكمه -التي بلغت مدتها الفعلية ٣٠ سنة و٥ شهور و٨ أيام من مجموع فترة حكمه التي تقترب من ٣٣ عاماً- بحكمه الفردي في إدارة الدولة. فشهد عصره تجميد مجلس النواب، وإعلان الدستور الثاني. وفي يوم ٢٧ أبريل عام ١٩٠٩م تم خلعه عن العرش وهو في ٦٦ من عمره و٧ شهور و٧ أيام. ولكن بنص الدستور الثاني اعتبر خلعه وهو في ٦٦ عام و٩ شهور و٥ أيام. وبعد خلعه تم نفيه هو وأسرته إلى "سلانيك". وعاش محبوساً لمدة ثلاث سنوات ونصف في قصر "آلاتيني" المملوك لأحد أثرياء اليهود. وبسبب اندلاع حرب البلقان عام ١٩١٣م، وتعرُّضِ مدينة "سلانيك" للخطر، تم إقناعه بصعوبةٍ بأن ينتقل هو وأسرته إلى إسطنبول، على الرغم من رغبته ألا يبرح مكانه. وهناك عاش حياته تحت المراقبة في قصر "بَيْلَرْبَيِي".

وتوفي السلطان عبد الحميد الثاني بمرضه نتيجة تقدم السن به في ١٠ فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز ٧٦ سنة. ويقع قبره في مبنى ضريح السلطان "محمودِ الثاني" بـ"جَمْبَرلِي طاش" بمدينة إسطنبول.

ب. سماته الشكلية وبعض مميزاته الشخصية

"كان السلطان عبد الحميد عريض الصدر، مشدود القامة، متوسط الطول، يتمتع جسده بالتناسق والرشاقة. وكان هادئاً تبدو عليه ملامح الريبة على حد تعبير والده السلطان "عبد المجيد". حديثه شديد الهدوء، يتكلم كلمة كلمة. بشوش الوجه. وكان يأسر قلوب الناس بوجهه الباسم وحديثه العذب. لم يكن يُسعده الضحك قهقهة، لدرجة أنه لم يره أحد قط

ضاحكا بصوت عال. كانت مشيته متواضعة وشديدة الوقار. وكان غاية في الوداعة. كان مختلفاً في كل أحواله، رقيق الإحساس جداً، حريصا لأقصى درجة لكيلا يجرح قلب أحد. اكتسب بذكائه ومعاملته الرقيقة الودودة تقديرَ الغرباء. لذا كان يدير أموره بسهوله. وكان يُفاجىء القائمين على خدمته بتصرفاته التي تكاد تقترب من الكمال في كل أحواله ومواقفه، وكانوا في ذات الوقت يعتزون بخدمته، ويتسابقون في تأديتها".[١]

كان حريصا على انتقاء الملابس النظيفة البسيطة المهندمة الملائمة لسنه، ولا يحبذ أن يُرص عليها الحلي من أمثال الرتب وما شابَهها. فكان يحمل في رقبته نيشان "سلالة آل عثمان" فقط. وكان يرتدي -صيفاً وشتاءً- معطفاً طويلاً من أقمشة رقيقة أو سميكة يصطف عليه من الأمام صفان من الأزرار. وكان يفضل الأقمشة الأنسب للصحة.

وكان يشير إلى أهمية الملبس والمظهر، موضحاً أن فوضوية الزي تنبع من تشتت الفكر، وأن الزي النظيف المهندم إلى درجة الأناقة يعبر عن حياة منظمة.

ومع نهايات القرن ١٩ وبداياتِ القرن ٢٠ أصبح السلطان عبد الحميد الثاني أحد الشخصيات التي أكثرَ العالمُ في الحديث عنها.[٢]

يَحكي عنه "عبد الرحمن شرف أفندي" أخر كاتب وقائع (مؤرخ الأحداث) الدولة العثمانية فيقول:

"كانت أمارات السلالة العثمانية واضحة جداً على وجهه وبنيته. كان رجلاً ذكياً وحساساً، سريع الفراسة، قارئاً جيدا للأحداث من حوله. رقيق

1 Mehmed Aydın; Sultan II. Abdülhamid'in Liderlik Sırları, Izci Yayınları, Istanbul 1998, s. 13

2 Akgündüz; a.g.e., s. 265-275

المعاملة دائما، عذب الصوت. يصون بكل كيانه وقارَ وعزةَ مقام الخلافة والسلطنة. لديه القدرة على توجيه تهديده في المكان الصحيح. يعرف متى يُظهر شدته، ومتى يُسكن غضبه. لطيف دائما مع حاشيته، لديه القدرة على أسر الأجانب الذين يقابلونه".[1]

بينما يشرح "ناهد سري أوريك"، أحد شهود العيان على عصره، محللا:

"وفي حين أنه كان قليل البضاعة فيما كان يتمتع به أغلب أجداده من دراية جيدة بالشعر والموسيقى وفن الخط، إلا أنه بالمقابل كان ذا مهارة بارعة في حرفة النجارة، حتى يُروى أنه كان يصنع العصا للجنود الذين فقدوا أرجلهم في حرب اليونان. وتَظهر تلك المهارة في عدة خزانات وغيرها صنعها بيده. واشتهر أيضا بمهارته في استخدام السلاح وركوب الخيل. كان متوسط القامة، يميل وجهه للدمامة أكثر مما يميل للجمال بسبب أنفه الكبير. كان صوته غليظا ولكنه كان متناغما. وعلى الرغم من قصر قامته إلى حد ما وعدم وسامته إلا أنه كان يتميز بالحلاوة المشوبة بالمهابة. وكان يفيض عذوبة ومودة تؤثران على مُحدثيه، يسلِّم بهذا من يحبه ومن لا يحبه. كان متواضعاً لدرجة أنه حينما كان يتحدث عن قصره كان يعبر عنه بـ"بيتنا" بدلا من أن يقول: قَصْرُنَا".

كان السلطان عبد الحميد يَعرف أيضا قليلا من اللغة الفرنسية، وكانت لغته التركية أكثر قرباً من اللغة التركية الدارجة (لغة العامة)، ولم تكن تستهويه اللغة العثمانية الثقيلة التي كان يتحدث بها الصفوة.[2] وكان يشبه عمه "عبد العزيز" من حيث الطبع والميول والسلوكيات. وكان كلاهما

1 Reşat Ekrem Koçu; Osmanlı Padişahları, İstanbul 2000, s. 561

2 Mim Kemal Öke; Vambery, Belgelerle Bir Devletlerarası Casusun Yaşam Öyküsü, Istanbul 1985, s. 4

من حيث المكانة أكثر رجال الصفوة العليا قرباً إلى المسلمين العثمانيين. قد يكون ورث كل من العم وابن الأخ عن أمهاتهما هذه الصفات التي تقربهما من عامة الشعب، لأن أمهاتهما أيضا كانتا من عامة الشعب مثل أمهات أغلب السلاطين العثمانيين، مما سمح بتسلل الثقافة الشعبية إلى طبقة الصفوة بالتدريج.[1]

لم يكن السلطان عبد الحميد رجلاً وسيماً كأبيه، كما ذكرنا سابقاً، إلا أنه لم يكن دميما، وكان يتمتع بجمال الروح. ففي وجه هذا الرجل المتوسط القامة سمات خاصة؛ نظراته، عيناه البنّيّتا اللونِ ذواتا النظرات الثاقبة، أنفه المقوس ودقيق الأطراف قليلاً. وكان صوته جميلاً حسبما أشار إليه كاتب الوقائع، غليظاً قوياً به رنين رجل السلطة.[2] كان مُقلا في حديثه، مُكثرا في إنصاته. يبعث الطمأنينة في من يتحدث إليه، يعامل الجميع بعذوبة. كان بشوشا حتى مع من لا يرغب في مقابلته، ولا يبوح بضيقه منه. عُرف عنه الاتزان منذ أن خطا إلى سن الشباب. فلم يشرب الخمر. وكان يعيش حياة بسيطة بعيدة عن كل أنواع السفاهة. وكان يستمتع بالموسيقى الغربية والمسرح والأوبرا. كان يعي جيدا الطبائع المختلفة لأولئك الذين يعملون في مناصب الدولة، ويُجيد الاستفادة منهم، لذا كان يعطي كل فرد منهم المنصبَ الذي يتوافق مع طبيعته. (يضع الشخص المناسب في الوظيفة المناسبة). وكان يستشير رجال الدولة على اختلاف رؤاهم قبل أن يبدي قراره في قضايا الدولة المهمة، وأحيانا كانت تتم مناقشة الآراء المتناقضة في مجلسه، ثم يعطي في النهاية رأيه القاطع. وفي القرارات المصيرية كان يحيل القضية إلى المجلس حتى يصدر القرار منه. كان إنساناً متديناً محباً

1 Karpat; a.g.e., s. 294

2 Koçu; a.g.e., s. 562

للخير.(١) عاش حتى آخر عمره مُسلماً متديناً.(٢) وكان شديد الكره لسفك الدماء، لم تتعد فرمانات الإعدام التي وقّع عليها أصابعَ اليد الواحدة طوال فترة حكمه التي استمرت ٣٣ عاماً. ولم يكن لديه رغبة في قطع رزق أحد، حتى إنه كان يرسل لمعارضيه السياسيين الذين هربوا خارج البلاد أو تم نفيهم مثل "نامق كمال"، و"مدحت باشا" رواتب خاصة.(٣)

كان مولعا بالتاريخ وبخاصة التاريخ الحديث. وكان يعجبه الاستماع إلى الأشخاص الذين لهم معرفة جيدة بأحداث التاريخ القريب وشخصياته أكثر من قراءتها في الكتب. وكان يؤمن بأن التاريخ هو ساحة للعبر والعظات. وانطلاقا من هذه الرؤية كانت تقام ندوات كثيرة خلال فترة حكمه عن موضوعات تاريخية، وكان قد اعتزم على إنشاء ملفات خاصة تحوي وثائق تتعلق بالتطور التاريخي للقضايا الهامة.(٤)

كان أحب أجداده إليه هو السلطان "ياوز سليم خان". ولقد عبر عن هذا الحب لـ"ڤيلهلم الثاني" (Wilhelm II) إمبراطور ألمانيا في أثناء زيارته لإسطنبول، فأراد الأخير أن يستألفه فأمر عند عودته إلى بلده بطباعة "ديوان ياوز" مُظهرا فيه كل مهارات الطباعة الألمانية، وأرسل نسخة مغلفة بغلاف فاخر إلى السلطان عبد الحميد صديقِه العظيم في إسطنبول.(٥)

كان مقتصداً يكره الإسراف على الرغم من سخائه، لأنه كان يعي جيداً عاقبة السخاء بإسراف، والشجاعةِ بتهور.(٦)

---

1 Küçük; a.g.m., s. 223-224
2 Karpat; a.g.e., s. 282
3 Küçük; a.g.m., s. 224
4 Akarlı; a.g.m., s. 253
5 Koçu; a.g.e., s. 562
6 Koçu; a.g.e., s. 562

عادة كان ينام مبكرا ويستيقظ مبكرا -إلا في حالات استثنائية-، ينهض قبل بزوغ الشمس، وكان على عادته يستحم، ويصلي صلاة الصبح، ثم يبتهل إلى الله بالدعوات، يقرأ ما تيسر له من القرآن الكريم.

وبعد أن يؤدي عبادته، يتناول الفطور. وكان إفطاره بسيطاً جداً؛ فكان يشرب نصف كوب من اللبن مخلوطاً بالماء المعدني، وبعدها مباشرة يشرب قهوته يليها انكبابه على المنضدة ليباشر أعماله الرسمية حتى حوالي الساعة ١١:٠٠.[١]

كانت طفولته حزينة جداً؛ حيث فقد أمه وهو في العاشرة من عمره، وفقد والده وهو ابن ١٩ سنة. ولقد أنضجته تلك الأحزان التي مر بها، فجعلته أكثر اهتماماً بدراسته، عازفاً عن اللهويات بصفة خاصة، ويحيا حياة وقورة. فكان يحب القراءة والاطلاع على كل ما حدث ويحدث في العالم. لذا كان يتجنب أي شيء يعرقله عن الإنصات بدقة لما يتحدث به المدرسون وأرباب العلم. وكان كل تركيزه في المدرسة مُنصباً على دروسه. وبدأت تتشكل في ذهنه منذ هذه المرحلة أسس السياسة التي سيطبقها فيما بعد في المستقبل.[٢]

كانت ممارسة الرياضة من أحد أعماله اليومية حينما كان أميراً. وكان فارساً بارعاً ومصوباً (نشانجي) ممتازاً. ويُقال: إنه كان يبحر بقاربه متوجهاً إلى "قِيزْقُولَه" (برج البنات) ومن هناك يدخل البحر. وكانت مزارع شقيقته السلطانة "جميلة" الواقعة في "عَلَمْ داغْ" (Alemdağ) أعلى "طرابية" (Tarabya)

1 Ayşe Osmanoğlu; Babam Sultan Abdülhamid (Hatıralarım), Selçuk Yayınları, Istanbul 1986

2 Joan Haslip; II. Abdülhamid Han, Terc.: Zeki Doğan, Fener Yayınları, Istanbul 1998, s. 51

من أحب الأماكن إليه. وظل حتى الأيام الأخيرة من حكمه يعمل في ورشة النجارة الخاصة به في قصره، كأمهر أُسْطَوات النجارة في عهده.

كان مقتصدا. وكان الدخل الشهري المخصص له مع الإيراد الوارد له من إدارته لمزرعته يعد ثروة كبيرة من جانب، ومن جانب أخر مصدرا لإكسابه دراية وخبرة عن الإدارة وأسواق المال. وكانت ترفيهاته محدودة. وظل طوال عمره معتنيا بصحته عازفا عن الخمر والإفراط في الملذات.[١]

كانت ذاكرته قوية جداً، محال أن ينسى صوتا سمعه أو صورةً شاهدها ولو مرة واحدة. وكانت ذاكرته القوية تثير الحيرة في نفوس الناس.[٢]

ولاهتمامه الشديد بصحته، كانت ساعات عمله وساعات تناول الطعام ومواعيد استراحته غاية في النظام. كان في العموم -وطبقا لتقاليد القصر- يتناول الغداء في الساعة الحادية عشرة، ويتناول وجبة المساء في الخامسة. وحينما يتم تجهيز الطعام يذهب لغرفته ليتناول الطعام مع زوجته. كان يتحاشى أن يجلس على مائدة الطعام وحيداً، وكان يسعده تناول الطعام مع عائلته. وطوال فترة حكمه لم يفته تناول الطعام مع أهله إلا في نادر الأحوال.

وبعد الطعام كان يستلقي على الأريكة مسترخيا من ١٥ إلى ٢٠ دقيقة، ثم ينهض من جديد ليباشر الأعمال المتبقية منذ الصباح، فيمر على "السَّلاَمْلِكْ"[٣] ويبدأ العمل. وكان يقابل أثناء عمل الظهيرة بَاشْكَاتِباً (رئيس الكتبة) أو الكاتب الثاني، وبعضاً من رجال الدولة. ويستمر هذا الأمر حتى المساء. وغالباً كان يخرج إلى الحديقة عندما يحل المساء،

---

1 Akarlı; a.g.m., s. 253

2 Osmanoğlu; a.g.e., s. 22

٣ السلاملك: هو مقر تواجد الحاشية أو رجال القصر، وهو مقر العمل أو الإدارة الخاص بالملك.

حيث يتجول مع الباشاوات والبكوات، وأحيانا كان يمر على "الحرم". وأحيانا كان يعمل في ورشة النجارة، أو يقرأ في المكتبة.[1] وحينما توجد أعمال كثيرة وشاقة كان يظل يعمل في القصر حتى منتصف الليل. وإذا لم يكن لديه عمل، يتوجه فوراً إلى غرفة الاستراحة من بعد أن يؤدي صلاة العشاء.

كان السلطان عبد الحميد الثاني يتجنب إضاعة الوقت مثلما كان يتجنب إضاعة المال. وكان يجيد استثمار وقته، فكان يخطط ويضع جدولاً لكل شيء. وكان يدون الأشياء التي يؤديها والتي سيؤديها، بل كان أيضا يجعل من يؤدونها يسجلونها، ويسجل كل شيء بالساعة التي تنجز فيها.[2]

كان سر النجاح في رأيه هو: أن تتحرر من الجهل لتصبح عالِماً.

كان قارئاً جيداً. وكان يشعر بمتعة كبيرة من قراءة الكتب. وكان مفتوناً بالعلم؛ فحبه للقراءة الذي بدأ معه في سنوات صباه وهو مازال أميراً قد لازمه طوال عمره. وكان يعرف جيدا تاريخ الدولة العثمانية بصفة خاصة. وأثناء توليه الحكم أَسَّس مكتبة غنية جداً بالكتب في قصر"يِلْدِزْ"، وملأها بالكتب التي تم جلبها من كل أنحاء العالم. وهذه المكتبة هي مكتبة جامعة إسطنبول حالياً.

عادةً كان يقرأ كتاباً قبل خلوده للنوم. وفيما يلي نقل لبعض ما رَوَتْهُ عنه ابنته: السلطانة عائشة في مذكراتها بهذا الصدد:

"كنتُ كل ليلة في غرفتي أكلف من يقرأ لي كتابا لأتخلص من الأعباء الثقيلة التي تشغلني نهاراً، ولأبدد عنى أفكاري وهمومي، ولأشغل ذهني بأشياء أخرى، لأنعم بنوم هادىء. ولكن حينما كان ما أقرؤه جذاباً، يهرب

1 Osmanoğlu; a.g.e., s. 27

2 Aydın; a.g.e., s. 18

كل نومي. لذا ألزمت فريقا بترجمة بعض الروايات لهذا الغرض". ويضيف ضاحكا: "كانت مربيتي تهدهدني في طفولتي، والآن تؤثر الكتبُ التي أقرؤها التأثير نفسه. كنتُ أنصت لنصفها وأغط في النوم قبل أن أتمكن من سماع نصفها الأخر. وهكذا أصبحت القراءة هي حبوبي المنومة".[1]

كانت حياته العائلية هادئة جداً؛ فكان نموذجا للسلطان ونموذجا لرب الأسرة. وكان يحب الأطفال جدا ويتواصل معهم ويعاملهم بأبوة ولا يتجاهلهم. توفي أحد أولاده محترقاً، وآخرُ مات بمرض لم يتمكن أحد من تشخيصه، فحزن كثيراً. وقال: "لم يتمكن أحد من إنقاذ ابني، فما بال أطفال الفقراء؟ فلآمُرْ -على الأقل- بإقامة مستشفى لكيلا تحترق قلوب آباء آخرين مثلما احترق قلبي". وبالفعل بنى مستشفى الحميدية للأطفال، المعروفة اليوم باسم مستشفى "شِيشْلِي" للأطفال، وعَيَّن فيها صفوةَ الأطباء، وجهزها بأحدث الأجهزة التي جلبها من "ألمانيا". وهكذا أنقذ قلوب الكثير من الآباء من الاحتراق على أطفالهم، وفاز بدعواتهم له.[2]

بذل السلطان عبد الحميد الثاني جهداً كبيرا فيما يخص تربية الأطفال وتعليمهم. ولقد أفرد لأطفاله مدرسين مخصوصين لتعليمهم، وكان يتبع أسلوبا شديد الدقة في تعليمهم. وحينما يتوفر له الوقت كان يستدعي من يريد من بناته ليتحدث معها. ولم يكن يسمح قط لزوجاته أو لبناته بالتدخل في الشؤون الرسمية، لاعتقاده أن في هذا التدخل مضرة للدولة.[3] وكان رأيه فيما يتعلق بتربية الأطفال أنه "يجب أن لا يُفضح الأطفال ولا تُذكر مساويهم في وجوههم، بل يجب على الأمهات أن تنبهن أولادهن".

---

1 Osmanoğlu; a.g.e., s. 23

2 Aydın; a.g.e., s. 24

3 Osmanoğlu; a.g.e., s. 15-16

وكان يحب أن ترتدي بناته الملابس البسيطة جداً البعيدة عن البهرجة، قائلاً: "يجب على الفتيات أن يتحركن في رزانة وهدوء". وكان يكره حديثهن بصوت عال، وإشارات اليد. وكان يسعى لتعليمهن التعامل باحترام مع أمهاتهن ومع إخوتهن ومن يكبرونهن، وأن يحافظن على دَورهن ولا يتخطين من أمامهن. ولم يكن يحبذ تدليلهن. أما بالنسبة إلى الذكور من أولاده فكان يقول: "إن الولد الذكر لابد أن تتم تربيته وكأنه رجل".[1]

عُرف عنه حبه للنجارة ورسم المناظر الطبيعية، وكان كلما توفر لديه الوقت يعمل في ورشة النجارة الخاصة به. له عدة آثار كان بعضها مزينا بالصدف وبعضها محفورا، وهذه الآثار محفوظة في قصر "يِلْدِزْ".

مثلما ذُكر سابقاً، فإن ولعه بالنجارة بدأ منذ عهد والده. كان يوجد آنذاك حرفي موهوب في حرفته يدعى "خليل أفندي". فتعلم منه دروس النجارة مثلما تعلم منه من قبلُ والدُه السلطان "عبد المجيد"، وكانا يعملان معا. وأقام في القصر ورشة للنجارة. وكان العمل هناك هواية من أكبر الهوايات التي تمتعه. وكان السلطان يهوى أيضا صناعة الخزف الصيني. وكان يُهادي بمنتجاته اليدوية -سواء الخشبية أو التي هي من الخزف الصيني- رجالَ الدول الأجنبية.

وكان أيضا تاجراً ماهراً جداً؛ فمنذ أن كان أميرا كان يدير المزرعة، ويكتسب منها دخلا كثيرا؛ حتى إنه لما تولى العرش عام (١٨٧٦م) وزع منحة الجلوس على العرش والتي بلغت ٦٠,٠٠٠ ليرة من ماله الخاص، وهكذا وفر لخزينة الدولة مبلغا كبيرا من المال.[2] وكان يؤيد أن يكون

1 Aydın; a.g.e., s. 26

2 Tahsin Paşa; II. Abdülhamid:Yıldız Hatıraları, Boğaziçi Yayınları, Istanbul 1996, s.11

لكل إنسان مهنته الخاصة به، وكان يقول: "اعمل، اِسعَ، اجتهد... ليكن لك مهنة، حتى ولو كنت ملكا..."

كان شديد التواضع، لا يرى نفسه أفضل من الآخرين، وكان يكره المتكبرين.[1] وكان التذرع بالصبر وقوة الاحتمال في التعامل مع الأحداث غير المرغوب فيها، وحلُّ المشكلات بالحفاظ على هدوء الأعصاب ورباطةِ الجأش من سماته ومن أسرار قدراته القيادية المهمة.

كان عبد الحميد خان الثاني عاشقاً لأمته؛ يؤلم قلبَه وقوعُ أي أذى لأي شخص لأي سبب، يعمل ليلاً ونهاراً من أجل سلامة الوطن والأمة، ويضحي بحقه من الراحة ويظل بلا نوم. وفي هذا الصدد تقول ابنته السلطانة "شاديه":

"كان والدي يحب أمّته لدرجة الوله، وكان حبه نابعاً من القلب واضحا على ملامح وجهه؛ حينما يستخدم كلماته "صغيري أحمد"، "صغيري محمد" وكأنه يخاطب أولاده. إنني أتذكر حربا واحدة أثناء فترة حكم والدي، وهي حرب اليونان ١٨٩٧م، كنت آنذاك طفلة. وحسبما أتذكر، فإنه تم إحضار وتوزيع كميات كثيرة جدا من الأقمشة الكتانية على الغرف التي في "الحرم"، وتمت حياكتها ليلا من أجل الجنود الجرحى. كنا نقف مع الخدم جنبا إلى جنب أمام ماكينات الخياطة منذ ساعات الصباح الأولى وحتى ساعات نومنا، نحاول إنجاز العدد المطلوب من الملابس. استمر هذا العمل الدؤوب طوال فترة الحرب. وكنت أقوم بخياطة الأزرار في القماش، أعتقد من وجهة نظري أنني أؤدي عملاً عظيماً.

1 Necip Fazıl Kısakürek, Ulu Hakan Abdülhamid Han, Büyük Doğu Yayınla-rı, Istanbul 1994, s. 317

كان والدي يأتي إلينا ويهنّئنا على العمل الذي ننجزه ويردف قائلا: "يا أولادي! فليحفظ الله وطننا من كيد الأعداء!".

كانت تلك الكلمات تمدنا بالقوة والحماس. كنا ننصت له وعيوننا منصبة على ماكيناتنا وإبرنا، لكيلا نضيع الوقت... كم كان والدي يردد كلمة: "الوطن! الوطن!" كرر هذه الكلمة كثيرا جداً..."[1]

كان موهوباً أيضا في اكتساب ود الجميع، حيث كان يجلب مودتهم بالهدايا التي يعطيها لأعدائه وأصدقائه، بالبشاشة التي تعلو وجهه، بحديثه الحلو، بمودته، بشخصيته المتواضعة البعيدة عن الغرور.. كل هذا مكنه من تأسيس أواصر المحبة بينه وبين الأخرين.[2]

وفي هذه النقطة أيضاً، فإنه فضلاً عن شهرته في دهائه السياسي فقد اشتهر بذكائه الخارق، وذاكرته القوية أيضاً. ولأنه لكل جواد كبوة فلا يخلو هذا الذكاء الخارق من الجوانب المعيبة، وعلى رأسها الوهم. ولكن بشكل عام هناك اتفاق على كونه ذا خبرة ودهاء وذكاء يفوق ذكاء كل رجال الدولة في عصره. وكان تأثيره على الناس دائما محط الإعجاب.

كان -كوالده- لطيفاً في علاقاته الشخصية، يقف احتراما عند استقبال أي شخص. مَنَع منعاً باتاً عادةَ القرون الوسطى مثل تقبيل الأرض عند مقابلته، كان مُقنعا جداً، مهيب الصوت، حلو الحديث جداً. لم يكن يخاطب بالضمير "أنت" أيَّ أحد حتى أطفاله، وكانت تلك الصفات أحد أسباب سلطته الشخصية التي تزيد عن ٣٠ سنة. وبرغم الدعايات التي انتشرت في أوروبا عن الحكام الأتراك إلا أن الأجانب الذين عرفوا عن

1 Kısakürek; a.g.e., s. 362

2 Aydın; a.g.e., s. 83

قرب شنخص السلطان "عبد الحميد"، صرحوا بأنهم تقابلوا وجهاً لوجه مع شخصية لم يتوقعوها أبداً، ولم ينسوا ما انطبع عنه في ذاكرتهم.[١]

إن الدول والمؤسسات تتطور بالكوادر المتناغمة التي تنذر نفسها لرسالتها، وتستجيب للأوامر ولكن في نفس الوقت تعبر عن أفكارها بوضوح كلما اقتضى الأمر. فالكوادر القوية، والوزراء والمعاونون الأكفاء لهم ثروة لا تقدر بثمن. ويتعسر النجاح على القائد المحروم من مثل هذه الثروة. فكان السلطان عبد الحميد الثاني من القادة النادرين والذين تخطوا هذه العقبة على الرغم من الصعوبات.[٢]

كان شديد الاهتمام بتنفيذ أحكام الإسلام، واجتناب نواهيه. ولم يكن يدخر جهدا في بذل أيّ جهد من شأنه حفظُ دين المسلمين وذريتهم، ووأد أي شيء يضر الوطن داخلياً وخارجياً.

تحكي ابنته السلطانة "شاديه":

"كان -والدي- رجلاً معافى الجسد، يمتلك قواماً سليماً، وجسداً رياضياً. إنني أتذكر في طفولتي أنه مرض مرة واحدة فقط. كان قليل النوم. يستيقظ قبل الفجر. يؤدي الصلوات الخمس، ودائما يتلو القرآن، ويطالع صحيح البخاري. كان مسلماً حقاً، متديناً، قريباً من الله تعالى. دائما على وضوء. لا يمل العمل".[٣]

كان يطلب من خدامه أن يوقظوه في أي ساعة من الليل، عند حدوث أيّ أمر طارئ، لأنه كان يرفض أن يؤجل عمل اليوم إلى الغد تحت أي ظرف.

---

1 Öztuna; a.g.e., s. 138-139

2 Aydın; a.g.e., s. 171

3 Şadiye Osmanoğlu; Hayatımın Acı ve Tatlı Günleri, Bedir Yayınevi, Istanbul 1966, s. 115

وباختصار فإن الفرق الشاسع الذي تَميز به عبد الحميد خان الثاني عن السلاطين في العهود الأخيرة هو مباشرته لإدارته للدولة بالفعل، وكونه رمزاً لفكر، وصاحب شخصية مشعة بالأمل للمجتمع. بهذه الصفات كان السلطان عبد الحميد الثاني في الحقيقة من وجهة نظر المجتمع العثماني سلطاناً غير تقليدي، ينأى بفكره عن القوالب الجامدة. كان صاحب شخصية حساسة جمع في نفسه المتناقضات، وعلى الرغم من قدرته على اللعب على كل الأوتار، إلا أنه كان يسير بعزم و بإصرار في الطريق الذي يعرفه.[١]

عند تأملنا لكل هذه الآراء، ومثلما أوضح (M. Ali Kılıçbay)، فإن العثمانيين قد عاشوا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أكثف فترات الاتجاه للغرب، وأحرزوا تقدما فيه على الرغم من الاتهامات الموجهة إليه بأنه وضع نظاماً استبداديا.[٢]

ج. عائلته

١. زوجاته

١. نازك أَدا باش قادن أفندي.

٢. بدرِ فَلَك باش قادن أفندي.

٣. صافيناز نور أفسون قادن أفندي.(٢)

٤. بيدار قادن أفندي.(٢)

1 Bayram Kodaman; "II. Abdülhamid Hakkında Bazı Düşünceler", Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 2.Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, s. 275-285

2 M. Tanju Akad; Osmanlıların Stratejik Sorunları, Kastaş Yayınları, Istanbul 1995, s. 208-209

٥. دلبسند قادن أفندي.(٣)

٦. مازيده مستان قادن أفندي.(٣)

٧. أمثال النور قادن أفندي.(٣)

٨. عائشة دستى زر مشفقة (كايخان) قادن أفندي.(٤)

٢. أولاده

أ . الذكور

١. محمد سليم أفندي.

٢. محمد عبد القادر أفندي.

٣. أحمد نورى أفندي.

٤. محمد برهان الدين أفندي.

٥. عبد الرحيم خيري أفندي.

٦. أحمد نور الدين أفندي.

٧.محمد بدر الدين أفندي.

٨. محمد عابد أفندي.

ب. الإناث

١. السلطانة علوية.

٢. السلطانة نائلة.

٣. السلطانة ذكية.

٤. السلطانة فاطمة نعيمه.

٥. السلطانة سنية.

٦. السلطانة سنيحة.

٧. السلطانة شاديه.

٨. السلطانة عائشة.

٩. السلطانة رفيقة.

١٠. السلطانة خديجة.

١١. السلطانة علية.

١٢. السلطانة جميلة.

١٣. السلطانة ساميه.[1]

---

1 Çağatay Uluçay; Padişahların Kadınları ve Kızları, Ankara 1992, s. 171-183, Akgündüz; a.g.e.,s. 269

خدمات
السلطان عبد الحميد خان الثاني

أ. خدماته في مجال التعليم والإدارة

حاول السلطان عبد الحميد الثاني بإخلاص أن ينشر مؤسسات التعليم والتنوير في كل أنحاء الوطن إلى جانب اهتمامه بإعمار الدولة. لاسيما وأن التطورات التي أدخلها على التعليم أصبحت أحد النماذج البارزة الدالة على خدماته. فمثلا: تم افتتاح مدارس للمرحلة المتوسطة، والمرحلة الثانوية في شتى بقاع البلد. وفي مجال التعليم العالي تم تأسيس جامعة (دار الفنون). وتم عمل كُتيبات (فهارس) خاصة بكل محتويات المكتبات الوقفية الموجودة في كل أنحاء البلد. مما ضمِن سهولةَ عثور الطلبة على المصادر العلمية التي يبغونها.

انكب السلطان منذ أن تولى العرش، وخاصة بعد عام ١٨٨٢م على مشكلات الدولة وخاصة المشكلات المتعلقة بمجال التعليم في البلاد، وعلى رأسها العاصمة إسطنبول، وسخر جهوده لعمل كل ما يلزم لضمان إنشاء مراكز تعليمية تحقق أهدافه.

حاول عبد الحميد أن يبعد الكوادر الإدارية للدولة عن السياسية، وسعى إلى زيادة قدراتها المهنية. فتم تأسيس لجنة مراجعين لإصلاح

البيروقراطية، وتعديل كافة خدماتها عام ١٨٧٨م.[1]

أكبر أمنياته في مجال التعليم كانت القدرة على تكوينه جيشاً يتميز بالطاعة والانضباط والتدريب الجيد، ومجموعة من الإداريين المخلصين للسلطنة. إن رغباته تلك هي التي تتمناه قائد كل دولة على مدار التاريخ. ولكن خصومه حاولوا أن يصوروا جهوده هذه وكأنها جريمة. ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في هذا الصدد، في مذكراته بخصوص التهم الملصقة به في علاقاته برجال الفكر:

"لم أخش قط من إنسان يقرأ ويفكر، ولكنني أتجنب الحمقى الذين يظنون أنفسهم علماء لمجرد أنهم اطّلعوا على بعض الكتب، وأبتعد عنهم. أولئك الحيارى المبهورون بهيئة أهل الغرب بدلاً من الإعجاب بتقدمهم وتطورهم لم يروا مني أي اهتمام. ولست نادماً على هذا. أيعقل أن يكون الحاكم الذي سعى لبناء مسجد في كل قرية وشيد بجانبه مدرسة عدواً للعقل والعلم؟

فلينظروا إلى الكتب التي تمت طباعتها في عهدي، ولينظروا أيضا لِمَا تلاها... إن صفوة مختارات كبار فلاسفةِ أوروبا وعلمائها وأدبائها تمت طباعتها وبيعها وقراءتها في عهدي أنا. لم تكن رغبتي هي منع علوم أوروبا بل كانت منع خصومة أوروبا. فتكفلتُ بإرسال آلاف الطلبة إلى أوروبا للدراسة. فسد منهم ثلاثة أو خمسة رجال، لكن أغلبهم قدّموا خدمات طيبة للدولة، وإنني لأفتخر بهذا. إن الناس في أيام حكمي لم يكن لديهم وقت للثرثرة، بل كانوا يقرؤون أكثر، ويتعلمون أكثر، وأصبحوا أكثر تنويراً. وكنت مهتماً بالعلم، فأي إنسان كان يبدو عليه العلم ولو بزنة حبةِ بندق كنت أُحسِن إليه بزنة حبة جوز. كيف لا أشجع العلم والحال أنه لم

1 Karpat, a.g.e., s. 309

يصبنا ما أصابنا إلا لجهلنا بما حدث وما يحدث في العالم من حولنا. وما إن اعتليت على العرش حتى قمت بمد خطوط التلغراف إلى كل أنحاء الدولة في حين أنه كانت آنذاك دول اوروبية لم تصل إليها التلغراف. وتم مد خطوط التلغراف حتى ثلاثين ألف كيلومتر إلى أن وصلتْ إلى القرى تحت متابعتي الحثيثة. وتم عمل تجارب لغواصة في إسطنبول على نفقتي الخاصة. وفي تلك الآونة لم يكن العالم ولا حتى بريطانيا تعلم شيئاً عن ما يسمى بالغواصة. فإذا كان القادمون من بعدي تركوا هذا الأمر فما ذنبي. كلا! إني أكرر، وقلبي المحطم يُصدِّق قولي بأنني: لم أكن عدوا أبدا لأي شيء جميل، طيب، نافع. كنت فقط عدوا للذين يعادون أي شيء جميل طيب ونافع..."[1]

ويقول السلطان عبد الحميد الثاني في موضع آخر من مذكراته رداً على مبرارات من يصورونه عدوا للعلم بالمفهوم الغربي، ودحضاً لحجتهم المتعلقة بموقفه السلبي إزاء التطورات الحادثة في هذا المجال فيقول:

"أكنتُ أنا عدوا للعقلاء! تجرؤوا على كتابة هذا بلا خجل.! أنا -على حد قولهم- لم أحترم العقل يوما على مدار حياتي!. وإن كانوا يعنون بـ"العقلاء" من كان مثلهم، فصحيح، أنا لم أحترم مثل هذا العقل. وأما إن كانوا يقصدون بذلك أنني عدو للعقلاء الحقيقيين، فليبرهنوا على هذا ولو بمثال واحد فقط، وسأقبله.

إنني طوال حياتي بحثت عن الرجل العاقل. وللأسف لم أستطع أن أعثر عليه. لو كنت عدوا للعقل والعلم هل كنت أفتتح جامعة، وأُشيد مدارس كـ"ملكية شاهانه" التي تُخرج متعلمين للأمة وللوطن؟ لو كنت عدوا للعقل

1 Ismet Bozdağ; II. Abdülhamid'in Hatıra Defteri, Pınar Yayınları, Istanbul 2000, s. 84-85

والعلم هل كنت أشيد مدرسة "دار المعلمات" الخاصة بالفتيات من أجل تعليم الشابات اللواتي يهربن خوفاً من الديك! لو كنت عدوا للعقل والعلم أكنت أجعل "غَلَطَة سَرايْ" على غرار الجامعات الأوروبية، وآمُر بتدريس الحقوق للطلبة هناك؟ وقد حدث حينما قررت دروس الفلسفة على طلبة "ملكية شاهانه" أن ثار كل الطلبة وقالوا: "يريدون أن يجعلونا كفاراً".. أنا أرى أن الكفر يكمن في الجهل وليس في العلم. أصررت على موقفي، ودرسوا هذه المادة بعد أن بدلنا اسمها بالـ"حكمة"، مثلما أمرت بتدريس هذه المادة في جامعة "دار الفنون" تحت مسمى "الفيزياء"...

إنني لم أكتفِ بالسعي في إعداد إنسان متعلم بافتتاح المدارس فقط، بل قمت بتشجيع أولئك الذين يسعون لتعليم أنفسهم بأنفسهم. فقمت بالدعم المعنوي والمادي لـ"جودت باشا"، و"أحمد مدحت أفندي"، و"شمس الدين سامي أفندي"، و حتى "مراد أفندي" (Mizancı) الذي يظن نفسه أنه مؤرخ كبير، وهيئت لهم فرصة لإنتاج أعمالهم. ولقد ذكرت سابقاً مدى حمايتي للأدباء الآخرين. لقد تأسست "دار الشفقة" من قَبل أن أتولى العرش، ولكنها لم تستمر بطريقة أو بأخرى، المدرسة التي تم تأسيسها لخدمة أيتام دولتي، أنا من أوصلتها إلى ما هي عليه اليوم. لكن -وياله من قدر غريب- فإن كل أعدائي اليوم قد تعلموا في المدارس التي أنشأتها أنا، ويزعمون بأنني أنا "عدو العقل والعلم". وللأسف لا يشعرون بالخجل من هذا الزعم....".[1]

الكتب المطبوعة في الدولة العثمانية خلال الفترة ١٨٢٠-١٩٠٨م[2]

---

1 Bozdağ; a.g.e., s. 83-84

2 Orhan Koloğlu; Avrupa Kıskacında Abdülhamid, Iletişim Yayınları, Istanbul 1998, s. 406

الفترة الزمنية	١٨٢٠-١٨٣٩	١٨٤٠-١٨٥٩	١٨٦٠-١٨٧٦	١٨٧٦-١٩٠٨
الأدب	٥٦	٢١٧	٥٨٣	٢٩٥٠
العلوم الحديثة	٨٩	٢٣٠	٥٨٣	٣٨٩١
الدين	٥٩	٣١٠	٣٧٢	١٣٠٧
الإدارة	١٣	٥٥	١١٨	٩٤٦

الجدول الموضح أعلاه هو خير جواب على الأقاويل -لو كانت حقيقية- الخاصة بذلك الصدد. ونترك التعليق والقرار لفكر القارئ...

كان "عبد الحميد الثاني" يهتم اهتماما خاصا بتطوير الصناعة، وتحديث نظم الزراعة، والفن، والحرف، والتجارة والمجالات المتعلقة بها. لذا أفرد السلطان "عبد الحميد الثاني" أهمية كبيرة لإنشاء مراكز تعليمية مثل مدرسة "المُلكية"، و مدرسة "الحقوق"، ومدرسة "الصنايع النفيسة"، ومدرسة "الهندسة"، ومدرسة "شاهانه الطبية". وهناك جزئية هامة جدا تلفت نظرنا في هذا المجال، وهي أنه تم تدريس الفرنسية جنبا إلى جنب مع العربية والفارسية في المدارس التي تم افتتاحها فيما بين سنوات ١٨٧٦-١٨٨٦م.

١. الأنشطة التعليمية، وعدد مدارس إسطنبول أثناء فترة حكمه

تم تأسيس ٢٦٤ مدرسة للأولاد، و٣ مدارس أولية خاصة بالفتيات، و١٩ للبنين، مع مدرسة إعدادية بحرية واحدة، و٨ مدارس عسكرية، و٩ مدارس للفتيات، و٢٠ مدرسة للبنين، و١٢ مدرسة للتعليم العالي والتعليم الثانوي في إسطنبول في نفس الفترة. إن السلطان عبد الحميد الثاني هو المؤسس الحقيقي للتعليم الابتدائي والمتوسط على الطراز الغربي. وكما ذكرنا من قبل فإنه تم إنشاء بنايات خاصة بهدف افتتاح

مدارس للتعليم الثانوي في كل الولايات وفي أغلب الأقاليم. وتم تأسيس مدارس للمرحلة المتوسطة في المقاطعات، وتم افتتاح ٦ مدارس للتعليم الثانوي في إسطنبول.

المدارس الأولية التي تعرف بـ"المرحلة الابتدائية" وصلت في عهده إلى القرى، ووصل عددها من ٦ مدارس إلى ٩٣٤٧ مدرسة، ووصل عدد مدارس "الرشدية" (المرحلة المتوسطة) من ٢٧٧ إلى ٦١٩ مدرسة. واعتبارا من المرحلة المتوسطة كان تدريس اللغة الأجنبية إجباريا. أما عدد المدارس الإعدادية فقد ارتفع من ٥ (الرسمية-الخاصة) إلى ١٠٩مدرسة. علاوة على ذلك فإنه نجح فيما فشل فيه من سبقوه، وافتتح باحتفال كبير "دار الفنون" وضمها إلى المؤسسة التعليمية. ولم يكتف بذلك بل افتتح أيضا عدة مدارس مثل الحقوق، المُلكية، الهندسة الإنشائية، الصنايع النفيسة، التجارة، الغابة، المعدن، التدريب الصناعي والزراعي.[١]

لقد افتخرتْ إسطنبول بأن عدد مدارسها للمرحلة المتوسطة قد اقترب من ٧٠ مدرسة متوسطة مع نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني.[٢]

٢. مدارس التعليم العالي

١. مدرسة المُلكية (كلية العلوم السياسية)

٢. مدرسة الحقوق (كلية الحقوق)

٣. دار الفنون (جامعة تحتوي على كليات الآداب والفنون)

٤. مدرسة الصنايع النفيسة (أكاديمية الفنون الجميلة)

٥. دار المعلمين العليا (٣٣ أكاديمية للتعليم العالي)

---

1 Güler Eren (Editör); "II. Abdülhamid", Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 12, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, s. 237-238

2 Karpat; a.g.e., s. 181

٦. مُلكية الهندسة (كلية الهندسة)

٧. مدرسة المالية

٨. مدرسة التجارة

٩. المدرسة العليا للزراعة (كلية الزراعة)

١٠. التجارة البحرية (مدرسة التجارة عبر البحار)

١١. دار المعلمات (١٢ مدرسة فنية للبنات)

١٢. مدارس للبكم والمكفوفين

١٣. مدرسة عشيرة (بهدف تواصل أبناء رؤساء عشائر أكراد الشرق مع الدولة)

١٤. مبنى ثانوية إسطنبول وأوسكودار الحاليين.

١٥. مدرسة التنقيب المعدني.[1]

لقد قام السلطان عبد الحميد الثاني بسلسلة من الإصلاحات الواسعة إلى جانب إدخاله النظم التعليمية الحديثة وملأ بها كل تركيا بشكل خاص، والشرق الأوسط بشكل عام. وكما كان السلطان عبد الحميد ومستشاروه والمدافعون عن الدين والتقاليد واثقين في قدرة الإسلام على مسايرة العلم و التقدم، كذلك كانوا جميعاً في صف التغيير والتجديد ويؤيدونه.[2]

٣. مدارس غير المسلمين

كفلت الدولة العثمانية في تلك الفترة حرية تعليم واسعة لرعاياها من غير المسلمين. وفيما يلي عدد المؤسسات التعليمية الخاصة بغير المسلمين في تلك الفترة:

---

1 Dabağyan; a.g.e., s. 23

2 Karpat; a.g.e., s. 3

١. مدارس الروم.................... ٦٦ مدرسة

٢. مدارس الأرمن.................... ٤٥ مدرسة

٣. مدارس اليهود.................... ٣٤ مدرسة

٤. مدارس البروتستانت ١١مدرسة

٥. مدارس الكاثوليك.................. ٩ مدارس

٦. مدارس البلغار.................... ٣ مدارس

ب . جهاز الأمن والعدل

فيما يتعلق بالعدالة، تم إصدار قوانين خاصة بأصول القضاء وأصول التجارة، وظهرت هيئة النيابة العامة للمرة الأولى في المحاكم.

تم تطوير فرق الشرطة على "طراز الدول الغربية"، وتم وضع نظام "التقاعد" أو "المعاش" بالنسبة إلى الموظفين. وخصصت إمكانيات خزينة الدولة بالتعاون مع جهود بعض الولاة لإنشاء طرق وجسور وأبنية حكومية ومدارس. علاوة على أنه تم مد خطوط لسكة الحديد روملي والأناضول برأس المال الأجنبي.[1]

جـ . المؤسسات الثقافية

تطورت الفنون الجميلة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في نفس الوقت الذي تطور فيه فن العمارة الحديث والوطني.[2]

ومن المؤسسات الثقافية:

١. متحف الهمايون (متحف الدولة)

٢. المتحف العسكري

---

1 Dabağyan; a.g.e., s. 23

2 Karpat; a.g.e., s. 311

٣. مكتبة بايزيد العامة
٤. مكتبة يِلْدِز
٥. جامع وقصر يِلْدِزْ الواقعان في ربوة بشكتاش.

د. المؤسسات الطبية

١. مؤسسة حيدر باشا العسكرية الطبية
٢. مستشفى الأطفال
٣. دار العَجَزة (دار لرعاية المسنين والذين ليس لهم من يرعاهم)
٤. مستشفى "بَيْ أوغلو" للنساء
٥. مُلكية الطبية (كلية الطب) في الشام.

هـ. دُور العبادة

١. مساجد كثيرة للمسلمين
٢. كنيسة للأرمن
٣. كنيسة للروم
٤. معبد لليهود

دُور العبادة السابقة موجودة حتى يومنا هذا وتقدم خدماتها.

و. المؤسسات العسكرية

أبدى السلطان عبد الحميد اهتماماً بكل ما يخص تجهيز جيش الدولة العثمانية بالأسلحة الحديثة، وفي سبيل تحقيق تلك الغاية ظل لأعوام يشتري أحدث الأسلحة، وركز على الغواصة التي لم تكن أصلا أهميتها معروفة لدى كثير من الدول، واشترى غواصتين عام ١٨٨٦م

بغرض تكوين قوة حربية كبيرة، فتم تركيب الأولى في ترسانة "الخليج"، والأخرى في ترسانة "بريطانيا".

واجه إهمال السلطان عبد الحميد الثاني للأسطول انتقاداً شديداً. وهذا النقد وإن كان به شيء من الصحة، فهو أيضا ليس صحيحا بالكلية. فمن المؤكد أن السلطان كانت له أسبابه الخاصة وراء نقله مدافع أسطول عمه إلى القصر. كان ذلك الأسطول يعد الثالث في العالم في أيام خلع عمه السلطان "عبد العزيز". بل إنه كان أكثر تحديثا من الأسطول الفرنسي الذي يعد رقم ٢ في العالم. وبعد هزيمة ٩٣ لم يكن بإمكان الدولة العثمانية أن تتحمل مصاريف التجديد اللازم والمستمر للأسطول، في نفس الوقت الذي كانت تسعى فيه لتطبيق إصلاحات كثيرة وثقيلة (التنظيمات) التي من شأنها النهوض بالدولة. ليس تفكير الدولة العثمانية أن تحذو حذو إنجلترا وألمانيا اللتين أنفقتا المليارات على الأساطيل إلا نوعا من الجنون قد ينتهي بإفلاس الدولة ماليا مثلما فعل السلطان عبد العزيز. لذا اكتفى السلطان عبد الحميد بشراء الطرادات الجديدة (نوع من السفن الحربية) مثل (الطرادة الحميدية، والطرادة المجيدية).[1]

افتتح السلطان عبد الحميد الثاني مدارس عسكرية تأهيلية وثانوية لكي يتمكن من إعداد جيش حديث، ماهر، منضبط، متعلم. وبذل قصارى جهده لتحديث الجيش الذي يمثل قلب الدولة.

فيما يتعلق بالشؤون العسكرية فإن الألوية الحميدية -التي تم تثبيتها في شرق الأناضول- قد قامت بدورها في حفظ الهدوء والسلام في المنطقة.

---

1 Öztuna; a.g.e., s. 240

ز. النقل والاتصالات

لم يكن سلطان واع صاحب نظام سلطوي ومركزي في السياسة الداخلية، ومتبع لسياسة متعددة الجوانب لدرجة فوق العادة في السياسة الخارجية، مؤمن بأيديولوجية شعبية واعدة كـ"الوحدة الإسلامية"، مؤيد ومطبق لتحديث المنظومة التعليمية.. لم يكن سلطان بكل تلك الصفات ليتجاهل أهمية النقل والاتصالات، لأن هدفه كان حماية الدولة داخليا وخارجياً. ولتحقيق هذا الهدف كان لابد من وضع دعائم معينة، وإعداد ظروف مناسبة تُوصِل إلى هذا الهدف، وعدمِ الاعتماد على السياسة وحدها في تحقيقه.

كان التحديث الذي دخل على التعليم هو أحد تلك الدعائم، أما الدعامة الثانية فكانت وسائل النقل والاتصالات، خاصة في مجال السكك الحديدية وخطوط التلغراف؛ لأن السكة الحديدية بمثابة القدم بالنسبة إلى الحاكم الذي يريد أن يدير ويحكم كل شيء، أما التلغراف والاستخبارات فهما بمثابة سمعه وبصره. بالإضافة إلى أن السكك الحديدية والتلغراف كانتا من أهم وأحدث اختراعات العصر. وفي ظل هذا كان يمكن تغيير وجه الدولة العسكري والاجتماعي والتجاري والفكري والاقتصادي. وعليه كان من الضروري إنشاء شبكة من النقل وتبادل المعلومات باستخدام تكنولوجيا السكة الحديدية والتلغراف، حيث تتكفل الوسيلتان بتقصير المسافات، وإمكانيةِ وصول قوة الدولة إلى كل أنحائها. والأهم من هذا وذاك أنه كان سيزداد النشاط في المجتمع.

لتلك الأسباب، أعطى السلطان عبد الحميد الثاني الأولوية لموضوع السكك الحديدية. فأصبحت خطوط السكك الحديدية منذ توليه العرش تمتد لمسافة ٣٠٠-٤٠٠ كيلومتر داخل أراضي الدولة العثمانية. وهذه

الخطوط هي خط "إزْمِيرْ-آيدن" الذي تم إنشاؤه عام ١٨٦٦م، وخط "حيدر باشا-إزميت"، وخط "إسطنبول-أدرنه" عام ١٨٧٣م. وشهد عام ١٨٨٥م أول إنشاء لخط سكة حديد سريع. وقد لعب التنافس بين الدول الكبرى في الحصول على امتياز السكة الحديدية دوراً كبيراً في هذا. واستفاد السلطان عبد الحميد من هذا التنافس، فربط إسطنبول بالخليج العربي عبر خط "حيدر باشا-بغداد"، وربط الدولة العثمانية بأوروبا عبر "أكسبريس الشرق"، وربط بلاد الأناضول بالأراضي المقدسة عبر خط "الشام-المدينة". وهكذا غيَّر هذا التطوير الكبير معالم الدولة.

إنَّ ربط إسطنبول بباريس عبر أكسبريس (قطار) الشرق، وربطها بالمدينة المنورة عبر خط الحجاز، يمكن أن يعد دليلاً على رغبة السلطان في الوصول إلى مزج بين الشرق والغرب، ودليلاً على رؤيته التحديثية والتجديدية، بالإضافة إلى رؤيته المحافِظة الإسلامية. كما سعى بخط سكة حديد بغداد إلى إحداث توازن في علاقاته الخارجية مع إنجلترا وفرنسا الليبراليتين، وألمانيا الديكتاتورية. ونتيجة لذلك وبفضل سياسة السكك الحديدية زادت الأهمية الإستراتيجية للدولة العثمانية، وزادت قوتها العسكرية، وضمنت التنقلات البشرية، والنشر السريع لأفكارها. لقد زادت شعبية السلطان بين الناس بسبب خط سكة حديد الحجاز، كما أن كل التطورات التي أدخلها جعلت منه رمزاً للوحدة الإسلامية.[1]

بالنسبة إلى دَور التلغراف فقد كان مثل دور السكك الحديدية، فإلى جانب ما جلبه للناس من تسهيلات كان يقدم خدمة جليلة للدولة والحكومة من الناحية العسكرية والأمن الداخلي. ولقد أدرك السلطان

---

1 Kodaman; a.g.m., s. 284

عبد الحميد الثاني بسرعة جدا قيمة التلغراف. وعليه أرسل الطلبة إلى باريس عام ١٨٨٣م ليتعلموه، وجعل من ضمن أنشطة "غَلَطة سراي" وسلطنة دار الشفقة مادة تعليم الإبراق بالتلغراف.[١]

هذا الاهتمام الواضح بالتلغراف كان بلا أدنى شك نابعاً من كون التلغراف وسيلة شديدة الأهمية في يد الإدارة المركزية. فبفضل شبكة التلغراف تيسر الاتصال بين كل ولاياتِ وأقاليم الدولة وبين العاصمة إسطنبول، وأصبح لدى السلطان القدرة على معرفة الأخبار وإرسال الأوامر متى أراد. كما حقق للدولة الراحة والتفوق عسكريا واقتصاديا وسياسياً.

كانت المطبوعات هي الوسيلة الثانية في مجال الاتصالات التي اكتسبت أهمية تعادل أهمية التلغراف. وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني وعلى الرغم من وجود الرقابة إلا أن طبع الصحف والكتب والمجلات وعدد القراء كان في ازدياد يوماً بعد يوم، وأخذ المجتمع التركي يعتاد على القراءة والكتابة. وكان هذا مؤشراً هاماً على التحديث الذي عرفته البلاد.[٢]

نستطيع أن نقول في النهاية: إن عبد الحميد خان الثاني سيظل في ذاكرة التاريخ كحاكم كبير "فتح الطريق للمجتمع لكي يتجدد ويتطور من حيث الفكر والثقافة والتكوين، وطبّق الاستقلالية بمعناها الحقيقي في ميادين شتى، كالاستثمار الاقتصادي والسياحة والصحافة والأدب، لأنه كان يتحيز للتقدم في كل النواحي بشكل واضح". [٣]

1 Bernard Lewis; Modern Türkiye'nin Doğuşu, TTK Yayınları, Ankara 1970, s. 184

2 Kodaman; a.g.m.,s. 285

3 Karpat; a.g.e., s. 309

د. إنجازاته في مجال الصناعة والمواصلات والمجال الاجتماعي

١. توسعة وزيادة إنتاج مصانع "هَرَكة" و"فَسْخَانه" للقماش.
٢. مصانع "يِلْدِزْ" للخزف الصيني.
٣. إنشاء أرصفة الموانئ بشكل منتظم.
٤. مياه شرب الحميدية في "كاغدخانه".
٥. عربات الترام الكهربائية أوالتي يجرها الحصان.
٦. إنشاء خط سكة حديد الحجاز (لتأمين راحة السفر لأفواج الحجيج)
٧. تأسيس خطوط تلغراف بين "الحجاز-البصرة" (امتد حتى المدينة المنورة)
٨. خط سكة حديد "يافا-القدس"
٩. خط سكة حديد أنقرة
١٠. مصنع الحميدية لإنتاج الورق
١١. خط سكة حديد بورصة
١٢. برج ساعة ضولمه باغجه
١٣. مصنع غاز قاضي كُويْ.
١٤. رصيف ميناء بيروت
١٥. الشركة العثمانية للتأمين
١٦. سد "كوجوك صو"
١٧. خط سكة حديد مانستر- سَلانيك
١٨. خط سكة حديد الشام - حوران
١٩. خط سكة حديد أسكي شهر- كوتاهيا
٢٠. رصيف غَلَطة- توبخانه

٢١. خط سكة حديد أفيون- قونيه.

٢٢. رصيف ميناء صاكز

٢٣. خط سكة حديد إسطنبول- سلانيك

٢٤. سوق السمك الجديد

٢٥. رصيف حيدر باشا

٢٦. خط تلغراف بنغازي

٢٧. خط تلغراف إسطنبول- كوستانجه

٢٨. مبنى محطة قطار حيدر باشا

٢٩. ديوان المحاسبة (خزينة الدولة)

٣٠. جلب ماءِ "تَركوس" (Terkos) إلى إسطنبول

٣١. سبيل ألمان (النافورة الألمانية)

٣٢. مبنى بريد "سِيرْكَجِي" الجديد

٣٣. جامعة دار الفنون

٣٤. الغرفة التجارية، والزراعية، والصناعية

٣٥. منظمة تحرير النفوس (السكان)

٣٦. البنوك الزراعية

٣٧. أبنية البنك العثماني

٣٨. مبنى (Reji).[١]

---

1 Ilber Ortaylı; Imparatorluğun En Uzun Yüzyılı, Iletişim Yayınları, Istanbul 1999, s. 208-227, Dabağyan; a.g.e., s. 24-27 ; Aydın; a.g.e., s. 111

نظرة عامة على الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

(١٨٧٦م-١٩٠٨م)



أ. الحالة العامة للدولة

كانت الدولة العثمانية لحظة تولي السلطان عبد الحميد العرشَ تعيش في أزمة حقيقية داخلياً وخارجياً. فلقد انكشف النقاب عن وصول الأزمة المالية لمستويات لا تطاق، وعن تغير قوى أوروبا وكأنها تغير قشرتها من ناحية أخرى، والسعي من جديد لإيجاد قوى تحقق التوازن. لهذا السبب جاءت الضغوط من مختلف عواصم أوروبا وازدادت حدتها. وساد اعتقاد في العاصمة إسطنبول بأنه يمكن تخفيف ضغوط أوروبا السياسية عن طريق إعلان الدستور.[1] وفيما يلي موجز عن السياسة التي تم وضعها وتطبيقها:

اتبع السلطان في التعامل مع الغرب سياسة التوازن، وأعطى الأولويةَ دائما لعنصر "التوازن" حتى وهو يضرب الدول الأوروبية بعضها ببعض.

أما في الشرق فقد اتبع سياسة "الوحدة الإسلامية"، وأولى أهمية كبيرة "للخلافة"، واهتم جداً بتعظيم مكانتها. وتحقيقا لهذه الرغبة ورداً على الحملات التبشيرية التي يقوم بها البابا، عزم السلطان على نشر الإسلام

1 Dabağyan; a.g.e., s. 16

في العالم كله فأرسل نسخاً من القرآن الكريم إلى بلاد الهند واليابان.[1]

نجح السلطان عبد الحميد في غضون خمس سنوات في إقامة سلطة قوية، كانت واحدة من أروع نماذج الإستراتيجية السياسية وحسن القيادة.[2]

ب. السياسة الداخلية

كان السلطان عبد الحميد خان الثاني بارعاً في السياسة الخارجية التي كانت عبارة عن زرع التنافس بين الدول الأمبريالية، وإغراقها بالمعارضات والتناقضات فيما بينها، وتحريض بعضها على بعض، واستغلال القضايا الداخلية والخارجية والضغط على نقاط ضعفها للزج بها نحو الهزيمة وذلك لإتاحة الفرصة للدولة العثمانية التي ترقد في فراش المرض أن تلتقط أنفاسها، والبحث عن حلول تخلصها من الضعف الذي يدب بداخلها.

وأما في السياسة الداخلية فيمكن إيجاز أساسياتها فيما يلي:

محو الاتجاهات والأفكار الضارة بالأمة، تخليص الشعب من الجهل الذي يعيش فيه، الوصول بالدولة العثمانية إلى سابق عهدها من الرفعة والعظمة مع التمسك بأصول الإسلام وأخذ العلم والتكنولوجيا من الغرب وإبعاد الشعب عن القيم الغربية الأخرى، ضم القيادات المخلصة التي تتسم بالنضج والعلم والوطنية والقيم الروحية إلى هياكل الحكومة والدولة، والسعي نحو توعية الشعب بأن حقيقة خلاصه إنما تكمن فقط في الحياة المستقيمة و تطبيق الدين الإسلامي بشكل صحيح وكامل.

يفسر السير "هنري وودس" (Henry Woods) باشا -أحد أهم رجال

---

1 Dabağyan; a.g.e., s. 17

2 François Georgeon; "II. Abdülhamid" Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 2, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999, s. 268

عصره- ويحلل شخصية السلطان عبد الحميد الثاني فيقول:

"إن للسلطان عبد الحميد الثاني -في رأيي- مكانةً شديدة الخصوصية بين كل السلاطين العثمانيين السابقين... وهو واحد من أنجح الحكام منذ بداية تأسيس الدولة العثمانية... لديه حياة شديدة الهدوء وبعيدة عن المظاهر. حينما يواجه أي مشكلة يستمع لمن حوله ثم يزن ما يسمعه، ولكنه لا يكون أسيرا لهم. كان يزوره بعض الأوروبيين أثناء زيارتهم لإسطنبول -حتى من قبل أن يعتلي العرش- لما تتسم به شخصيته من رزانة و جاذبية. وبعد توليه العرش رفض أن يُنظر إليه باعتباره مجرد دمية نظراً لأنه تم تنحية عمه عن العرش وإبعاد شقيقه الأكبر من على العرش. لقد رأى تلك الأحداث عن كثب، وتحت تأثير تلك الأحداث بدأ الشعور بالشك يساوره تجاه البشر والمحيطين به، وتضخّم لديه هذا الشعور مع مرور الزمن لأقصى حد، لدرجة أنه لم يعد يثق بأحد على الإطلاق.

ومن أجل تكوين رأي صحيح فيما يتعلق بنظام السلطان عبد الحميد الثاني لابد من تقويم الأحداث تقويماً عقلانياً. وعندئذ سيتضح كم كانت إداراته جيدة، لأنه وعلى الرغم من نظام حكمه القمعي كان يسعى لتجديد الإمبراطورية من الأساس؛ فلولا السلطان عبد الحميد لم تتمتع الدولة العثمانية بهذا الاستقلال والتوسع حتى الأعوام الأخيرة، ولم يكن لحكومة أنقرة (الجمهورية التركية) من وجود. (لقد كتب الأميرال هنري وودس هذه السطور عام ١٩٢٤م).

وقد تزامن وقت تولي عبد الحميد للعرش مع فترةٍ بها الكثير من سوء الحظ. فلقد اندلعت الحرب التركية - الروسية والتي جلبت الفقر والعوز للبلاد... على الرغم من كل النتائج الوخيمة لهذه الحرب إلا أن تلافي

الخسائر التي تكبدتها الدولة في عهد السلطان عبد الحميد كان مما يستحق كل تقدير. لأن الحرب الروسية قد أدت بتركيا إلى هاوية الإفلاس تماما من حيث المال والعتاد. فالديون الخارجية التي تم الحصول عليها بموجب اتفاقيات مختلفة في زمن الحكام السابقين والفوائد المتراكمة والتي وصلت لمستوى يصعب سدداها جعلت الفوائد أكبر من مبلغ الدين الرئيسي... وبموجب معاهدة برلين التي تمت بعد الحرب، فقدت الدولةُ العثمانية أهم وأغنى مقاطعاتها في أوروبا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فقدت في الشرق موقعا دفاعيا إستراتيجيا... وعلى الرغم من كل تلك العواقب السيئة إلا أن خزينة الدولة أعيد ترتيبها من جديد خلال أعوام قليلة، وتم تنشيط التجارة، ودفعُ جزء لا يستهان به من الديون. تزامن هذا مع تزايد قوة الجيش العثماني، وبدأت الدول الكبرى من جديد تطلب ود العثمانيين.".[1]

أما عن رؤية السلطان عبد الحميد لأحوال الدولة الداخلية، فنوردها فيما يلي:

كان السلطان عبد الحميد يهدف إلى إبعاد الدولة والأمة عن أجواء الحرب، لذا سعى لإقامة علاقات طيبة مع كل دولة بما يتفق مع ظروفها والظروف التي يمر بها العالم. لأن لَمّ شتات الدولة والأمة كان يحتاج لفترات طويلة من السلام. يقول هو نفسه عن هذا:

"لعل الله يرزقنا بالسلام والهدوء. لا أعتقد أن هناك بلدا يحتاج إلى السلام والهدوء مثلما يحتاج إليهما بلدنا".

بينما يشير السلطان عبد الحميد إلى أن كل الدول في العالم -حتى التي تعتبر حلفاء دائمين لدولتنا- إنما تتصالح من أجل مصالحها السياسية

1 Henry Woods; Türkiye Anıları, Çev.: Fahri Çoker, Milliyet Yayınları, Istanbul 1976, s. 113-139

والتجارية. وكان يحدد أسس السياسة لعهده في ثلاث نقاط وهي:

١. توسعة أراضيه.

٢. زيادة قوته باستعادة المناطق التي سبق وأن فقدها.

٣. توسيع النشاط التجاري مع المحافظة على سلامة أراضيه

وفي هذا الإطار، نرى أن السلطان قد انتهى من خلال نظرة في منتهى الواقعية تقيّم فيها إنجلترا وفرنسا وألمانيا التي تعتبر حلفاء للدولة إلى هذه النتيجة:

"إننا منعزلون في العالم. ليس لدينا أصدقاء، وإنما فقط لدينا أعداء. إن الصليب من الممكن دائما أن يجد له حلفاء، أما الهلال فيبقى دائما وحيداً. إن الذين ينتظرون المنفعة من الدولة العثمانية يُظهرون لها الحب، وحينما يفشلون في الحصول على ما يطمعون، سرعان ما يتحولون إلى أعداء".

كان يسعى في السياسة الخارجية إلى ترك انطباع مشوب في الأذهان عما إذا كان حليفاً لإنجلترا أم لروسيا حتى يكون ذلك دائما مثارا للجدل؛ كما كان يريد في المقام الأول حماية استقلالِ ونظام الإدراة المركزية في جميع الأراضي العثمانية من أي ضرر. إلا أنه كان يشير إلى أن التحالف مع أي منهما سيتسبب في أضرار مادية ومعنوية. وبينما كان يرى "كامل باشا" (من أفضل رجال الدولة في عصره) ضرورة السعي نحو اكتساب تأييد إنجلترا، كان "سعيد باشا" يميل إلى اكتساب تأييد فرنسا. ولكن السلطان اقتنع بعدم فائدة كلا الدولتين، واقتنع بأنه "لا يمكن أن يتحقق اتحاد واتفاق بين الأمة إلا إذا كانت نيتها خالصة صادقة".

وردا على الضغوط التي كانت تمارسها كل من الدولتين فيما يخص الإصلاحات في الأناضول، ظهرت الحاجة إلى عنصر حيادي جديد،

فسعى للتحالف مع ألمانيا التي لوحظ أنها لا تكنّ عداء مباشراً، ولا تتخذ سياسة سيئة تجاه "الدولة العلية". وجدير بالذكر أن من الأسباب التي يسرت إتمام هذا التحالف هو رغبة ألمانيا في الاقتراب من الدولة العثمانية لأنها رأت فيها سُوقاً لتسويق منتجاتها، ومصدراً للمواد الخام اللازمة لمصانعها، خاصة وأن ألمانيا آنذاك كانت تسير مباشرة وبسرعة نحو قمة نموها الاقتصادي.

لا بد أن نطلع على آرائه حول الأوضاع الداخلية للدولة وهو يوجه سياسة الدولة؛ لأن السلطان الذي يتعامل مع دول يعلم أن عينها على أراضيه لابد أن يأمن على الجبهة الداخلية حتى يقوى على مقاومة الضغوط الخارجية. ولكن كيف يمكن أن يدعم المجتمعُ العثماني -الذي يعاني من حالة من التفكك الذي يفتح الطريق أمام التدخل الأجنبي- ممارساتِ السياسة الخارجية؟

ومن ناحية أخرى، ماذا كان يفكر السلطان في الإداريين من الدرجة العالية الذين سيقودون المجتمع كجسد واحد لتدعيم الحكم؟ وهل سيتلائم ما يريد أن يفعله السلطان عبد الحميد مع وجهة نظرهم للقضية؟ حيث إنه كان يفكر بحتمية وجود سمات خاصة حتى يتمكن من الحفاظ على حيوية (شباب) الدولة والأمة. هذه السمات هي: التدين، التعصب للدين نوعا ما، التربية والتعليم، حب الوطن، الثروة المالية والصناعة. فالسلطان الذي رأى حالة المجتمع العثماني غير المستقرة، كان يرى أنه من اللازم أن يقوم بتوعية الشعب والعمل على تقدمه ونجاحه. ويقول مشيراً إلى النقص الملحوظ في الكوارد المدربة: "إن قدرة الدولة على الاحتفاظ بوجودها على الرغم من كثرةِ وتعدد الاضطرابات التي تعاني

منها داخليا وخارجيا إنما يرجع أولا وأخيرا إلى توافر العناصر البشرية الأكفاء. ومع الأسف فإن رجالنا من ذوي العلم قليلو العدد. وعلى العكس فإن غير المثقفين لدينا عددهم كثير للغاية. لا يعرفون المعنى الحقيقي للدين والقومية، منخدعون بنقود الغرب وشعاراتها".[1]

وكان يقول: "إن رغبة الأمة في الاتحاد تُحتِّم اتخاذ سياسة توازن بين إنجلترا وروسيا من أجل الدولة العلية". وكان يؤمن بحتمية تدعيم الرأي العام وتفعيل دور الصحافة لسياسته، وأن عليه أن يستمد قوته من الداخل حتى يمكنه التأثير في السياسة الخارجية. ولقد وجه أمراً إلى "أحمد مدحت أفندي" -من كُتاب تلك الفترة وواحد من أقوى شخصياتها- موضحا فيه اهتمامه بالأمر حيث قال: "لو كانت لدينا الرغبة في استمرار الأذان في المآذن، وفي بقاء إسطنبول عاصمة للبلاد، وفي بقاء الدولة فلابد من تجميع الرأي العام حول هذا الهدف". وكل هذا مما يفند الآراء المدعية بأنه كان يميل إلى "الاستبداد والانزواء في قصر يِلْدِزْ، والانعزال عن الناس، وسد الأذن عن سماع شكواهم".. كما أشار في نفس الوقت إلى وجود خطر وتهديد.

كان السلطان عبد الحميد يلمح إلى أن إنجلترا تهدف إلى نقل الخلافة من إسطنبول إلى "جدة" أو إلى "مصر" حتى تجعلها تحت سيطرتها هي، وتقومَ بتوجيه مسلمي العالم كما يريد. وقد حاول الإنجليز من قبلُ استغلال مكانة السلاطين العثمانيين لدى المسلمين باعتبارهم "خلفاء"، لمصالحهم الذاتية. إلا أنه لما بُعث "أحمد خلوصي أفندي" كرسول الخليفة إلى أفغانستان في عام ١٨٧٧م قام المسلمون هناك بإظهار حب

---

1 Cezmi Erarslan; "II. Abdülhamid Han", Osmanlı Ansiklopedisi, Ağaç Yayınları, Cilt 6, Istanbul 1993, s. 266-267

مفرط له، الأمر الذي أدى إلى سيطرة فكرة تحطيم مقام الخلافة في أذهان قادة الإنجليز الذين كانوا قد تخلوا عن سياسة مؤازرة العثمانيين، وذلك بسبب توجسهم خيفة من الاستغلال العكسي لنفوذ الخلافة. فسعى السلطان في السياسة الخارجية لاستثمار مركز خلافته كسلاح فعال في تعاملاته مع الدول وخاصة التي تضم رعايا من المسلمين، لإيمانه بضرورة مواجهة العدو بنفس سلاحه.[١]

كان السلطان يمتلك طاقة كبيرة، وبمجرد أن تولى العرش سعى إلى زيادة قوة الدولة داخليا وخارجيا، وسعى إلى إحياء دعائم الخلافة العظيمة من جديد، بشكل يجمع سلطات الخلافة في شخصه حتى يتمكن من تجميع كل مسلمي العالم تحت مظلة روحية واحدة، وليكتسب من جديدٍ هيبتَه التي فقدها في الحرب الروسية. وأثبت أنه بحق خليفة يسعى إلى حماية المسلمين. لم يحظ خليفة منذ أن وطأت الدولة العثمانية أعتاب الانهيار بقبول عالمي مثل السلطان عبد الحميد. فكان قصر يِلْدِزْ يمتلىء بالضيوف من ممثلي الدول الإسلامية في بقاع الدنيا من وسط أفريقيا وحتى بلاد الصين في الغرب. وفي موسم الحج كانت الدولة تقوم بتجميع أفواج التركمان والأفغان مع أتراك الكاشغر والتتار والقلموق والقرغز والقوقاز القادمين إلى إسطنبول عن طريق البحر الأسود ويتم تجميعهم في جامع "والِدَه" في "أسكودار"، وتتكفل الدولة بتوفير الزاد من طعام وشراب، وتوفير الحماية، ثم يتم نقلهم بسفن السلطان إلى "جدة". وأصبحت إسطنبول في موسم الحج هي المدينة التي يتجمع فيها مسلمو الدول خاصة دول الشمال والشمال الشرقي.[٢]

1 Erarslan; a.g.m., s. 270

2 Woods; a.g.e., s. 130

كان السلطان عبد الحميد مدركاً لمدى التهديد الذي تمثله الخلافة على كل من روسيا وإنجلترا، وكان يؤمن بأن الخلاص الوحيد من الأزمة هو "تحريض الدول بعضها على البعض الآخر بإعطاء كل منها أملاً أكبر من الأخرى واستغلال التنافس الذي بينهم"، لأنه يعرف أنه لن يستطيع بقوته الفردية أن يحمي الدولة العثمانية في مواجهة دول أوروبا الكبرى التي بدأت بالفعل في إجراء عمليات منظمة لتقسيم العالم كله فيما بينهم. ولأن كلتا الدولتين (روسيا وإنجلترا) تضم عددا كبيرا من المسلمين.

ولكن الأمر المهم حقا هو أن يكون الخليفة في عيون مسلمي العالم الذين استعمرت بلادهم واستُغلت إنسانيتهم ومجهوداتهم هو رمز الأمل في الخلاص. لذا كان يتمسك بكبح زمام نفسه والحفاظ على سلامة المسلمين في أي مكان في العالم ضد أي احتمال بالخطر، وعدم الانسياق وراء أي أمر محفوف بالمخاطر. وعليه فإن السياسة في عهد السلطان عبد الحميد كانت تقوم على ثلاثة محاور:

١. السعي نحو إحداث توازن فعال في مواجهة دول أوروبا الكبرى وعلى رأسها إنجلترا وروسيا.

٢. توفير الأمن والسكينة في الداخل بتوحيد المجتمع العثماني حول أساس الدين.

٣. استخدام الخلافة كعنصر تهديد في وجه الدول المستعمِرة وخاصة التي توجد فيها جالية مسلمة وعلى رأسها روسيا وإنجلترا.

ومع أن السياسة القائمة على هذه الأسس طبقت بشكل عام، إلا أنه كان يتم تغيير عناصر التوازن أحياناً. فمثلا بينما كان هناك مشروع اتفاق مع إيران وروسيا ضد إنجلترا، كان الحليف ألمانيا خلال أعوام ١٨٩٠م.

من ناحية أخرى كانت الخلافة في السياسة الخارجية عنصرا للتهديد بينما كانت في السياسة الداخلية عنصرا لتوحيد المسلمين. إلا أنه لم يستخدم الخلافة أبدا كسلاح للتحريض أو الوصول إلى أهدافه.. بل على العكس فقد كانت سياسة الخلافة تجري في إطار ثقافي، وهو ما فهمناه من الوثائق ومن التطبيقات التي أثبتناها.[١]

ونهاية للحديث عن هذه النقطة فإننا نرى فائدة كبيرة في توضيح أفكاره المتعلقة بإدارة الدولة، حيث يقول هو نفسه في مذكراته:

"الذين يفهمون التاريخ العثماني يعرفون أن هذه الدولة قامت على العدل ولم تقم على القوة؛ فلو أن الجيوش العثمانية حملت الظلم بدلا من العدالة إلى الأماكن التي وصلت إليها، لانقسمت بذرة الإمبراطورية من قبل أن تنمو. فالعدل هو أساس الشرعية، والشرعية هي سند الحكم، والقوة هي نصير الشرعية. لذا لابد أن تقوم القوة على الشرعية، ولابد أن يقوم الحكم على العدل.

فكل من يحكم بلا عدل ويستخدم القوة بلا شرعية يفنى. فالجيش إذا استغل قوته لما خصصت له فهو أمر مشروع أما لو أنزلق بها بعيداً عن غايته فهو أمر غير مشروع. فقد يحرِق ويدمر بعضَ الأشياء ولكنه في النهاية يتسبب في تدمير نفسه، ومع الأسف تنهدم الدولة أيضا تحت هذه الأنقاض."[٢]

جـ. السياسة الخارجية والوحدة الإسلامية (PANISLAMIZM)[٣]

كانت السياسة الخارجية هي أنجح جوانب السلطان عبد الحميد الثاني؛

1 Erarslan; a.g.m., s. 271

2 Bozdağ; a.g.e., s. 98-99

٣ PANISLAMIZM تيار ظهر في نهايات العهد العثماني تدعو للم شمل السلطنة العثمانية والأمة بإتباع الدين الإسلامي أساساً.

حيث أسس نوعاً من مركز المعلومات لمتابعة التطورات التي تحدث في العالم عن كثب. وكان يجمع فيه التقارير والمقالات المكتوبة في العالم كله وخاصة المتعلقة بتركيا، ثم يقوم بفحصها. وكان يأخذ معلومات من رجال العلم المحليين والأجانب إذا اقتضى الأمر. إن سياسة عبد الحميد الخارجية كانت بسيطة من حيث المبدأ، ولكنها صعبة من حيث التطبيق.[1] كان المبدأ الأساسي لسياسته الخارجية هو إعاشة الدولة في سلام وإبعادها عن الحرب مما يضمن لها النهوضة الاقتصادية والاجتماعية. كان السلطان عبد الحميد أثناء فترة حكم عمه السلطان "عبد العزيز"، ولقد تعرف أثناء زيارات ورحلات عمه لرجال الدولة المهمين شرقاً وغرباً من أمثال إمبراطور فرنسا، وملك النمسا، وولي عهد "بروسيا"، وأمير ويلز، وأمير فرنسا، والشيخ شامل، والأمير عبد القادر.

يوجِز "تحسين باشا" في مذكراته السياسةَ الخارجية للسلطان عبد الحميد الثاني فيما يلي:

"كان مسلك السلطان عبد الحميد في السياسة الخارجية هو: مداراة روسيا، وتفادي حدوث مشكلة مع إنجلترا، والمحافظة على علاقاته مع ألمانيا، وعدم إغفال أن عين النمسا على مقدونيا، والتعامل الطيب بالدرجة الممكنة مع الدول الأخرى، وإثارة بلاد البلقان على بعضها البعض، بزرع بذور الشقاق بين اليونان والبلغار والصرب."[2]

أما المبادئ الأساسية للسياسة الخارجية للسلطان عبد الحميد فهي:

المركزية (نظام الحكم الفردي)، التوازن، الحيادية، الاستقلالية،

---

1 Cezmi Erarslan; II. Abdülhamid ve İslâm Birliği, Ötüken Yayınları, İstanbul 1992., s. 219

2 Akgündüz; a.g.e., s. 265

استغلال الخلافات الموجودة على الساحة، السلام، تطييب الخاطر، التعويض (سياسة تقديم التنازلات)، الشدة في موضعها، التهديد بالعزل والتطويق. فكان يطبق هذه المبادئ مباشرة ويشرف عليها ويتابع كل التفاصيل بنفسه. ولقد أولى أهمية خاصة لمبدأ الحيادية في السياسة الخارجية. وكان حريصا على أن تجمعه علاقات بمن حوله ليتمكن من إقامة علاقات طيبة معهم سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء. وكان حريصا عند اكتسابه صداقة أحدهم ألا يكتسب في مقابل هذا عداوة الأخرين. كان السلطان عبد الحميد سياسياً محنكاً يعرف جيدا كيف يستفيد لأقصى درجة من الغيرة والتنافس الذي بين الدول الكبرى الناتج عن رغبة كل منها في التوسع. كان هدفه هو تجنُّب ويلات الحرب بإظهاره الرغبة في المحافظة على صداقة الدولة العثمانية بالدول الكبرى.

جوهر سياسة عدم الانحياز هو التجنب من الاقتراب من أي دولة أوروبية في حين اكتساب عداوة الدول الأخرى. إن مبدأ عدم الانحياز في الأصل كان عبارة عن تجنب السياسة الأوروبية.[١]

لقد كانت لديه معلومات واسعة جداً عن الدول الأوروبية، لأنه منذ أن صار أميراً كان يتابع أوروبا عن كثب، ويعي تأثيرهم على الدولة العثمانية، ويدرك جيداً نقاط ضعفهم، ومطالبهم. كان لديه علم بالسياسة الأوروبية حتى أدق تفاصيلها.[٢]

كان لديه قناعة خاصة بأن الخلافات لابد أن يتم التعامل معها فقط بالدبلوماسية واللين.

---

1 Süleyman Kocabaş; Sultan II. Abdülhamid: Şahsiyeti ve Politikası, Vatan Yayınları, Kayseri 1995, s. 204

2 Mim Kemal Öke; Sultan II. Abdülhamid Ve Dönemi, Doğuş Matbaası, Istanbul 1983, s. 43

وأما سياسة تقديم التنازلات (التعويض) فكانت تشمل التنازلات الاقتصادية، وحق الانتفاع بالأرض؛ فلم يتوقف كثيرا عند خسارة روملي الشرقية، وتونس، ومصر، وثيساليا. والسبب في ذلك أن سيادة الدولة العثمانية على تلك المناطق كانت بالاسم فقط. إلا أنه كان شديد الحرص على عدم التفريط في كريت، وشرق الأناضول، وكان يقول عن شرق الأناضول "أفرّط في رأسي، ولا أفرط في شرق الأناضول".[1]

وفيما يتعلق بالتعويضات في المجال الاقتصادي، فقد كانت من باب "عَظْمة تلقى لكلب" من أجل تفادي وقوع مصائب أكبر. وكانت أيضا تقوم على مبدأ "حماية حقوق الاستقلال"، و"المصلحة المتبادلة".[2]

أما مبدأ التخويف، فكان يقوم على إرهاب العدو بدعوة العالَم الإسلامي للتحرك الشامل بصفته خليفة الإسلام.

وفيما يخص مبدأ الاستفادة من الخلافات التي بين أعدائه، فهو أمر يثير الإعجاب. فلقد كان نجاحه في السياسة الخارجية سببا في إنقاذ الدولة من أكثر من كارثة. فعن طريق تلك السياسة التي اتبعها منع وحدة أعدائه؛ فدفع بفرنسا أمام إيطاليا في غرب طرابلس، ودفع بإنجلترا أمام فرنسا في مصر، ودفع بإنجلترا أمام ألمانيا في (إقليم مابين النهرين (Mezopotamya)، ودفع بالروس أمام النمسا في بلاد البلقان. وأوقد جذوة الخلافات التي بين اليونان، والبلغار، والجبل الأسود، والصرب، ورومانيا وبذلك حمى الدولة العثمانية من هجومهم. لقد كان تمسكه بوضع الدول الأوروبية الكبيرة داخل إطار من التضاد والمنافسة التي بينهم أحد الأسس التي دفعت الضرر عن الدولة العثمانية، فاستغل التنافس على نحو يمنع

1 Kocabaş; a.g.e., s. 205

2 Aydın; a.g.e., s. 80

استخدام سياسة فعالة في بلاد البلقان فتارة يضرب النمسا بروسيا، وتارة يقف خلف ألمانيا، مع وضع ألمانيا ضد إنجلترا، وإنجلترا أمام روسيا، وحافظ على إبقاء فرنسا على الحياد، وجعل إيطاليا تنتظر حيث هي.

إن سره السياسي الآخر يكمن في اتباعه سياسة أخرى وهي سياسة "الاستعمال" (الاستفادة). وجوهر هذه السياسة هو إقامة صداقات شخصية وطيدة مع أي إمبراطور، أو ملك، أو رئيس دولة، أوسفير، أو صحفي.. ومنع استعدائهم عليه، واكتساب ودهم بمنحهم النياشين.[١]

كان السلطان عبد الحميد سياسيا محنكا، يعرف جيدا كيف يستفيد لأقصى درجة من الغيرة والتنافس الذي بين كل الدول الكبرى والناتج عن رغبة كل منها في التوسع. كان هدفه تجنب ويلات الحرب عن طريق محافظة الدولة العثمانية على شعرة معاوية في التعامل مع الدول الكبرى.

أما المبدأ السياسي الآخر فهو التعامل بتريث وهدوء أعصاب وفقا لما تقضيه طبيعة الأحداث، فكان يجد أن السلامة عند الأزمات تكمن في التريث والصمت. وعليه عندما يواجه أزمات كبيرة كان السفراء الأجانب ومترجموهم المغرورون يجتهدون في إقناعه بسرعة الإفصاح عن رأيه فيها، إلا أن محاولاتهم كانت تذهب سدى ويفشلون في الحصول على قرار منه لا يرغب هو في اتخاذه. كان رجل دولة يعرف كيف يزن من يتعامل معهم، بارعاً في وضع كل شخص في مكانه المناسب.. ومرة أشغل سفيرا مزعجا لأسابيع، ثم رده إلى بلده خاوي الوفاض.[٢]

كان من الواضح أنه يستفيد دوماً من تضارب مصالح الدول الأوروبية وطموحات في الدولة العثمانية. لذا كانت السياسة الخارجية تتغير تبعاً

1 Kocabaş; a.g.e., s. 206

2 Woods; a.g.e., s. 113-139

للتغيرات الجديدة التي تطرأ على العلاقات الدولية. وعليه فقد اتبع سياسة الاستقلالية في الفترة من عام ١٨٧٨م وحتى بداية القرن العشرين، فعزف عن عقد معاهدة طويلة مع أي دولة. وبدأ يمارس سياسات متنوعة ليحول دون اتحاد الدول الكبرى بقدر الإمكان حتى يُوقع بينهم.[1]

ومن وجهة نظر أخرى، يمكن وضع أهداف ونتائج ومعضلات الحكم الفردي لعبد الحميد تحت أربعة عناوين:

أ. سياسة خارجية تقوم على عدم الانحياز مع تكوين علاقات ودية مع الدول المحيطة.

بـ- سياسة تهدف إلى إعادة السمعة المالية للدولة، بوضع برنامج لسداد الديون الخارجية والتوجه نحو زيادة الضرائب والقدرة الإنتاجية للدولة بتطوير البنية الاقتصادية لها.

جـ- اعتبار المسلمين هم العنصر الأساسي، والسعي نحو إقامة الدولة على أساس اجتماعي أكثر انتشارا، باكتساب تأييد تلك العناصر الإسلامية عن طريق التعليم.

د- وأخيرا سعيه نحو تطوير نظام الحكم بما يعزز سيطرة الدولة على رعاياها، ناشراً خدمات اجتماعية عديدة، على رأسها السلام والأمن وبث الطمأنينة مع نظام عادل سريع الأداء.

كانت هذه هي الأهداف التي تدور في ذهن السلطان ومن حوله من رجال العلم. وكان متأكدا أنه يحتاج إلى السلام حتى يتسنى له الوقت لجمع شتات الدولة العثمانية.

وكان يؤمن بأن الحروب هي حمل كبير على دولة على غرار الدولة

---

1 Erarslan; a.g.e., s. 219

العثمانية حتى لو انتهت تلك الحروب بالنصر... لذا كان يرى أن أول شروط السلام وأهمها هي إقامة علاقات طيبة مع الدول المجاورة.[1]

إن كلمات المفكر الفرنسي الأستاذ الدكتور (François Georgeon) عن السلطان عبد الحميد لملفتة للنظر في سبيل فهمه له بالمعنى الحقيقي حيث يقول: "بشكل عام إذا كنا سنقوِّمه، فمن الممكن وصف فترة عبد الحميد بأنها فترة غنية بالأحداث، فترة حكم طويلة وسلطة قوية. فإن الدور المهم الذي لعبه عبد الحميد في تاريخ تركيا الحديث دور واضح. إن فهم عبد الحميد، واستيعاب فترة حكمه تعني فهم حاضر تركيا اليوم".[2]

يقول الإمبراطور الألماني "بسمارك" بعد استعراض سياسات عبد الحميد الثاني: "لقد تعلمت السياسة من عبد الحميد". فسياسته كانت تترك "بسمارك" حائرا. تُرى ما سر سياسته التي ضمن له السيطرة في البلاد ٣٣ عاماً؟

يحكي السلطان عبد الحميد عن حالة الدولة وقت أن تولى العرش، وعن سياسته التي اجتهد في تطبيقها على مدار فترة حكمه:

"ولدتْ دولة شابة وقوية في أمريكا. وأُخرِجت أسبانيا من مستعمراتها نهائيا. واتحد يهود العالم، وطالبوا عن طريق المحافل الماسونية بأرض الميعاد (أرض يزعم اليهود أن الله قد منحها لهم تمتد من النيل إلى الفرات). تلا هذا الأمر قدومهم إليّ وعَرْضُهم عليّ نقودا كثيرة مقابل الحصول على جزء من أرض فلسطين لتوطين اليهود بها. بالطبع رفضت... كانت الرؤية واضحة جدا أمامي، إن دول أوروبا الكبرى قد بدأت تقسم العالم تمهيداً لاحتلاله. وهذا معناه أن الممتلكات العثمانية ستكون من ضمن الدول التي

1 Akarlı; a.g.m., s. 257

2 Georgeon; a.g.m., s. 266

سيتم تقسيمها. وأنا لا يمكنني الصمود وحدي أمام تلك القوى. الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أفعله هو استغلال التنافس الذي بينهم، وإثارة طمعِ كلٍّ منهم في الحصول على النصيب الأكبر، مما يوقع الشقاق بينهم.

وكنت أرى بكل وضوح أن وجود ألمانيا قد أفسد وحدة أوروبا مما سيؤدي إلى وقوع تضارب بين هذه الدول في نهاية المطاف. فلو كنت أستطيع إنقاذ بلدي من التجزئة، حتى حلول هذا اليوم ووقوع النزاع بينهم، لانضممت إلى أحدى التكتلات واحتميت بها واستطعت أن أحمي بلادنا. لا أحد يعرف متى سيحدث هذا الأمر، ولكنه عن قريب سيحدث. أرى ارتباك الإنجليز بقدر ارتباك الروس والفرنسيين تجاه ازدياد قوة الألمان والتي تزيد عاما بعد عام. وهذا معناه التنازع وتصفية الحسابات مع بعضهم البعض. بحثتُ بدقة عن الطريق الذي سأسلكه بعدما لاحظت أثناء المؤتمر المنعقد في إسطنبول أن نوايا الدول الكبرى تتجه نحو تجزئة الدولة العثمانية عن طريق منح المسيحيين الحكمَ الذاتي أولا ثم استقلالهم، وليس تأمين حقوقهم كما كانوا يزعمون. كانوا يحاولون ضمان ذلك بشكلين. الشكل الأول إثارة تمرد الرعايا المسيحيين وتحريضهم وبالتالي دعمهم. والثاني هو الزج بنا نحو الحكم المشروطي (البرلماني -الدستوري) لكي يفرقوا بيننا. وكان بإمكانهم العثور بسهولة على مؤيدين لتحقيق هاتين الغايتين. إن الحكم المشروطي إنما يكون سهلاً في الدول ذات الوحدة القومية الواحدة، وللأسف فإن بعض المثقفين الأتراك استمروا يضيفون الزيت إلى خبز الأعداء لأنهم لم يميزوا أن الدول الغير التابعة لهذه القومية لن يأخذوا الدستور في الاعتبار. فكيف كان يمكنني أن أدفع بدولتي بعيدا عن هذه الخداعات و التمردات؟

وسرعان ما مددت الجيش بأسطول مسلح بالأسلحة الجديدة، وجهزته بما يتناسب مع الحرب الجديدة. واستدعيت الخبير العسكري الألماني الكبير (Van der Goltz) للحضور إلى إسطنبول. لأنني إذا كنت متحالفا مع دولة تسيطر على البحار في الحرب التي أنتظرها وأرجو اشتعالها غداً، فإنه سيستفيد من جيشي، وبالمقابل فإن أسطولها سيسهل عملي. وسيكون لديّ جيش على دراية كبيرة بالخدع الحربية التي تقوم بها الدول التي أحاربها.

نعم، لم يكن لديّ القوة لمصارعة دول أوروبا والتصدي لها بمفردي، ومع هذا فإن الدول الكبرى التي كانت تضم تحت حكمها رعايا كثيرة من المسلمين في آسيا مثلها مثل إنجلترا وروسيا كانوا يخافون من سلاحي بصفتي خليفة المسلمين. ومن هنا استطاعوا أن يدركوا أن نهاية الدولة العثمانية تكمن في (النقطة الأخيرة) سقوط الخلافة.

لم يكن ينبغي لي أن أستخدم هذا السلاح خارج حدود بلدي حتى يأتي اليوم الذي أنتظره، لأن التسرع لم يكن ليفيد إخواننا في الدين، ولن يفيد بلدي أيضا.

قررت أن أستخدم قوتي كخليفة للمسلمين لتهيئة حالة من الوحدة والسكينة لبلدنا وضمان سلامة إخواننا من المسلمين المقيمين خارجها ضد أي احتمال ممكن. ولما أن الخلافة كانت في يدي كان هذا الأمر دائما مبعثا لقلق إنجلترا. وقعت في يدي خطة تم إعدادها في الخارجية الإنجليزية على يد إنجليزي يدعى "بلوند" وشخص وقع ألعوبة في يدهم يدعى جمال الدين الأفغاني؛ كانا يقترحان على الإنجليز أن يعلنوا شريف مكة كخليفة للمسلمين، مصرين على أن الأتراك أخذوا الخلافة عنوة.

إنني أعرف "جمال الدين الأفغاني" عن قرب. كان يعيش في مصر، كان شخصا خطيرا؛ لقد اقترح عليّ يوماً إثارة جميع مسلمي أسيا الوسطي على التمرد على أن أدعي أني المهدي المنتظر، كنت أعلم أنه لا يمتلك القدرة على تحقيق هذا، وأنه كان مجرد أداة في يد الإنجليز؛ أَعَدُّوه من أجل أن يختبروني. رفضت على الفور هذا الاقتراح. فأبرم اتفاقا هذه المرة مع "بلوند". فاستدعيته إلى إسطنبول بواسطة "أبو الهدى الصيادي" الحلبي الذي يحظى باحترام لدى كل الدول العربية. جاء الأفغاني إلى إسطنبول بتوسط كل من "منيف باشا" حامي الأفغاني منذ زمن بعيد، و"عبد الحق حامد"، ولم أسمح له بمغادرتها مرة أخرى.

لم ينته اهتمام الإنجليز بمسألة الخلافة. لأن ١٥٠ مليون مسلم كانوا يعيشون تحت حكمهم (أي الإنجليز) في آسيا، وللخلافة نفوذ كبير على هؤلاء المسلمين. ولأنني كنت مدركا لهذا الأمر، أبديت اهتماما كبيرا دون أن أثير شك الإنجليز بربط مسلمي آسيا الوسطى رباطاً معنويا بالخلافة فأرسلت السادات والشيوخ والدراويش تحسبا لأي شيء. وإنني لأخص بالشكر الشيخ سليمان أفندي البخاري على خدماته التي أداها بين مسلمي آسيا الوسطى؛ فلقد جنيت فوائدها الكثيرة في علاقتنا مع الإنجليز. فكلما رأى الولاة الإنجليز في الهند عن قرب مدى ترابط المسلمين هناك بالدولة العثمانية، كتبوا تقارير لحكوماتهم عن وجوب إقامة علاقات طيبة مع الدولة العثمانية، الأمر الذي سهل أمورنا إلى حد ما.

لم تكن لدينا قوة المقاومة والاكتفاء الذاتي. لو تحول أعدائنا -الذين اتفقوا على تقسيمنا- إلى أجزاء، و-بالمقابل- لو استطعنا أن نتحول إلى قوة موحدة بحيث لا يمكن لأحد هؤلاء الأجزاء التخلي عنا لأصبحنا من جديد

أصحاب كلمة مسموعة في الدنيا... كان واضحاً أمام العيون أن التنافس الذي بين الدول الكبرى سيؤول آجلاً أم عاجلاً إلى الصراع والتنازع.

وهكذا كان لابد للدولة العثمانية أن تعيش بعيدا عن النزاع و الانقسام، وكان لابد من أن تظهر قوتها عند حدوث النزاع. وهذا هو سر سياستي التي استمرت ٣٣ عاماً".[1]

... وحركة الوحدة الإسلامية (Panislâmizm)

لا شك أن حركة الوحدة الإسلامية اتخذت مكانة هامة خلال حكم السلطان عبد الحميد خان الثاني الذي استمر ٣٣ عاماً.

لم يواجه حاكم مسلم قرارات هامة وحاسمة على مدار التاريخ مثل السلطان عبد الحميد الثاني. إن كان مسلماً مؤمناً، وسلطاناً فرديا في حكمه ولكنه كان في الوقت ذاته مؤمنا خالص الإيمان بالتحديث، وعلى الرغم من إعجابه بأوروبا وتطورها إلا أنه لم يتطلع بأي شغف نحو الثقافة الأوربية. [2] في هذه الحالة فإنه تظهر الحاجة إلى أساس قوي لتأمين الاتحاد والقوة على المستوى الداخلي، وللوصول إلى الأهداف المنشودة.

فيما يتعلق بهذه النقطة، فإن سياسة "الوحدة الإسلامية" تُعرَّف بأنها: التأكيد على دور الإسلام في توحيد المسلمين وتنظيمهم في السياسة الداخلية، وترويج قضية الخلافة في شارع العالم الخارجي، وخلع صفة الحامي لمسلمي العالم أجمع عليها، والجهود التي تبذل في سبيل تشكيل وحدة الغاية.

ونرى أنه من الفائدة بمكان تقويم عناصر هذه الجهود المبذولة. إن

---

1 Bozdağ; a.g.e., s. 66

2 Karpat; a.g.e., s. 22-23

الخلافة لغة مِن خَلَفَ أي جاء بعدُ، أما المعنى الاصطلاحي فيقصد به الحكم والإمامة كوكيل عن الرسول ﷺ. وتذكر المصادر أن هذه المؤسسة الدينية تحولت إلى مقام السلطنة بعد الخلفاء الأربعة الراشدين. وفي نهايات الخلافة العباسية أصبحت الخلافة تعبيرا يستخدم من قِبَل رئيس كل دولة إسلامية، ولم يعد مصطلحاً دينياً فقط بل أصبح مصطلحاً سياسياً أيضا.

أثناء ذلك سعى الإنجليز لإثارة مسألة الخلافة على اعتبار أنها -أصلا- في قريش كما جاء في كتب الفقه، إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني لم يتوان في أخذ الاحتياطات من جهتين. إذ أعطى أولوية للعلماء الذين يؤيدون خلافته في مصر والحجاز من جهة، ومن جهة أخرى تم لفت الأنظار إلى أنه حتى لو كان مقبولاً أخذ السلطان ياوز سليم الخلافة من العباسيين عام ١٥١٧م إلا أن الأمر لم يتم التأكيد عليه بشكل فعلي حتى معاهدة Küçük Kaynarca عام ١٧٧٤م. ومع هذا فإن كلا من "لطفي باشا" في عهد "سليمان القانوني"، و"جودت باشا" في عهد السلطان عبد الحميد الثاني قد بينا أفكاراً هامة تتعلق بالخلافة. وقد أكد الاثنان بأن الدولة العثمانية على حق في هذا الموضوع تماماً. لقد تقبل رجال الفكر العثمانيون فكرة الحاجة إلى وجود خليفة على اعتبار أنه "سيؤمّن بقاء الدين، وسيطبّق أوامر ونواهي الشريعة، وسيحافظ على الأماكن الإسلامية المقدسة، وسيضمن ارتباط الحاكم بكل المسلمين في الدول الأخرى". وليس هناك ضرورة للبحث عن شرط أن يكون الخليفة من قريش. والمهم هو تأثير الحاكم المسلم ونفوذه وقوة قانونه بحيث يجعل منه قائدا مسموع الكلمة وزعيماً للمسلمين. وكان يسلّم بأن هذه القوة متوفرة في شخص السلطان عبد الحميد الثاني في تلك الفترة.

إن استخدام مقام الخلافة في التاريخ العثماني قد بدأ مع الأحداث التي أظهرت عدم كفاية قوة الدولة عسكريا وسياسياً. فحينما لم تستطع القوة العسكرية والسياسية أن تمنع خروج القرم من أيدي المسلمين في الحرب الروسية-العثمانية ١٧٦٨-١٧٧٤ أصبحت الخلافة هي أداة استمرار العلاقات مع المسلمين. اتبع السلطان عبد الحميد في مواجهة محاولات الدول الغربية على تقسيم أراضي الدولة العثمانية فيما بينهم، وخضوعِ قبرص لإنجلترا لفترة، وضياعِ تونس ومصر، وحركاتِ التمرد والانفصال التي تفشت في بلاد البلقان؛ وثورةِ الأقليات في الداخل، والحملاتِ التبشيرية، والفتنِ التي زرعها الإنجليز في الأراضي العربية، وفقدِ أراضي كثيرة في حرب الدولة ٩٣ مع تفشي وتزايد الفساد فيما بين المسلمين.. فاتبع سياسة من شأنها أن تترك جميع ساسة العصر الحديث في حيرة،[1] إذ أضفى على الخليفة صفة تعكس حكما ملكيا مطلقاً، كما تعكس شدة الاهتمام بالإسلام، وهي أن خليفة المسلمين هو "ظل الله في الأرض".[2]

هذه السياسة المسماة بـ"الوحدة الإسلامية"، كانت تهدف إلى توحيد المسلمين فكريا تحت لواء الدولة العثمانية التي كانت دولة إسلامية مستقلة لا نظير لها، مع بث روح الحماس، وعدم تجاهل الحقائق العقلية والأمور التي تحدث في العالم، والعمل على سير الدولة في طريق بعيد عن المخاطرة.

إن مسلمي العالم كانوا ينتظرون مساعدة من خليفة المسلمين في مواجهة ظلم الدول الغربية وضغوطهم. إلا أن هذه المساعدات كانت تهدف إلى التخلص من نشاطاتهم المدمرة في داخل البلاد، وتقليل الأضرار إلى أقل

1 Erarslan; a.g.m., s. 271-272

2 Ortaylı; a.g.e., s. 179

مستوى، ولم تكن ترنو إلى طرد الدول الإمبريالية من الأراضي. إن هدف سياسة الوحدة الإسلامية هو وقف تراجع العالم الإسلامي، والتصدي لإمبريالية أوروبا المسيحية. وهذه هي أساسيات تلك السياسة:

إيقاف الاحتلالات الأجنبية، وإلغاء الامتيازات والحصانات المعطاة للأجانب.

ترسيخ الدين الإسلامي الحق، وجمع كل مسلمي العالم -إن أمكن- تحت قيادة الخليفة الحاكم الشرعي الوحيد للدولة.[1]

كانت الدول الإمبريالية وخاصة إنجلترا وفرنسا وألمانيا -والتي جعلت نصب عيونها ما يزخر به الشرق الأوسط من آبار البترول- تسعى لإفساد العلاقة بين الناس وخليفة المسلمين ناشرين التيارات الفاسدة، ملوحين بأفكار الانفصال بتفعيل أفكار القومية بواسطة عملائهم. وبناء عليه شرعوا في افتعال قضايا النزاع بين المسلمين، بغرض تجزئة الدولة بزرع بذور القومية، وتحريض أصحاب القوميات على الخليفة. كان هدف الإنجليز الأساسي ومعاونيهم من اليهود هو تجزئة الوحدة الجماعية ناشرين تيارات الفكر المنحرفة والمتشددة بين المسلمين السُنة، ومحرضين العرب على الأتراك، والأتراك على العرب، والأكراد على الأتراك.

فاتبع السلطان عبد الحميد سياسة الوحدة الإسلامية لإحباط المحاولات الخبيثة التي تقوم بها الدول الإمبريالية، وأعطى العطايا والرتب وأرسل النياشين للقبائل العربية بهدف ربط المسلمين بالدولة العثمانية. وهكذا حالفه التوفيق في ضم معظم الشيوخ القائمين في البلاد العربية لإدارة

---

1 Philip H. Stoddart; Teşkilât-ı Mahsusa, Çev.; T.Demirel, Arba Yayınları, Istanbul 1993, s. 14

الدولة العثمانية.[1] وبدأ كفاح صعب مع الإنجليز القائمين في الأراضي العربية. كان الإنجليز قسمين؛ قسم يساعد الشيوخ العرب ضد السلطان، وقسم أخر يساعد السلطان. استعان الإنجليز بعملاء مخصوصين انتشروا بين الناس على هيئة شيخ أوعالم أودرويش، وسعوا لتنفير الناس من الخليفة بنشر أفكار مضادة عن اعتقاد أهل السنة وضد العثمانيين. وجلب الإنجليز إلى صفهم بعض أمراء الخليج ومسقط، وناسا من اليمن.

في مقابل هذا استقبل السلطان في القصر الوجهاء العرب بترحاب، وساعدهم على تشييد الجوامع والمدارس، وشق الطرق في دولهم، وكان يحذرهم من الانخداع بالإنجليز. وكان الشيخ "أبو الهدى" شيخ الطريقة الرفاعية السورية دائما بجانبه. وكان بمثابة المستشار له. كان مسلمو مصر والإعلام المصري يؤيدون الخليفة العثماني ويدعمونه في مواجهة الإنجليز. في نفس الوقت كانت في مصر مجموعة يتزعمها "مصطفى كامل باشا" أيدت السلطان عبد الحميد حتى عام ١٩٠٤م.[2]

وكما اتبع السلطان في الخارج سياسة "الوحدة الإسلامية" انتهجها أيضا في الداخل، فأولى أهمية كبيرة لاتحاد الشعب ووحدتها. فعمل على نشر الأنشطة التعليمية في كل أنحاء الوطن حتى يقطع عن خصومه الدعم الذي يحصلون عليه من العامة باستغلال جهلهم، ويبعدَ -بذلك- العناصرَ المخالفة وبخاصةٍ الموجودةَ في الداخل، مع بذل المساعي لتبصرة الناس بدينهم بإرسال العلماء لتعليمهم الدين الإسلامي بشكل صحيح وشامل. لأن السلطان كان يرى أن القضاء على الجهل والضعف المتفشي بينهم لن يكون إلا بطريق العلم. بهذا نجح السلطان في بناء

1 Aydın; a.g.e., s. 94

2 Kocabaş; a.g.e., s. 245-246

عرش له في قلوب العامة حينما وصل بجهود التنمية إلى القرى والمراكز الريفية، واهتم بالزراعة، وبنى الجوامع في المناطق السكنية التي ليس بها جامع، ورمم المساجد القديمة والتكايا. لقد اجتهد أن يجعل من سياسته نموذجا يحتذى به في العالم الإسلامي.

عمل على تقليص سلطة غير المسلمين وتأثيرهم داخل الدولة؛ فزاد من عدد الموظفين المسلمين مقلصا من عدد الموظفين المسيحيين.[١] ولقد كسب ودَّ العامة في الأعياد الإسلامية عيد الفطر وعيد الأضحى. كان في رمضان يساعد المتقاعدين والعجزة والأرامل والأيتام. وكان يكلف من يساعد الأسر ذوات الدخل المحدود بالفحم والحطب والطعام في أيام الشتاء القارص. وأظهر اهتماما خاصا بكل الطرق الدينية. ومنح الرتب والنياشين لشيوخ تكايا بعض الطرق الصوفية. وكان من عادته أن يعطي كل عام ٣٠ ألف قرشاً كهدية لموظفي الجوامع من الأئمة والوعاظ والخطباء. ومنع فتح الخمارات وبيع الخمور في أحياء إسطنبول التي يقطنها المسلمون.[٢]

د. شكل الإدارة في عهد السلطان عبد الحميد

قرر السلطان عبد الحميد الثاني أن يجمع كل السلطة في القصر أي يحكم البلاد حكما فرديا لكي يُؤمّن السكينة في الداخل، وليتمكن من التحرر من أوروبا. وبناء على هذا القرار بدأ بإرجاع كل سلطة الباب العالي إلى القصر وإدارة الدولة من القصر. كان يعتقد أن هذه السياسة تكفل ارتباطه عن قرب بكل أمور الدولة العسكرية والمالية والإدارية وغيرها.

1 Aydın; a.g.e., s. 110

2 Erarslan; a.g.e., s. 217-218

كان السلطان يريد أن يتعلم كل شيء، وكان يسأل عن كل شيء، ويدقق في طباع كل شخص. وكان يطلع على السيرة الذاتية لكل موظف مطلوب تعيينه، وإذا لم ترقه يرفض تعيينه فيما عدا تعيين القضاة فلم يكن يتدخل فيه لأنه كان يبغي تعيين الشخص المناسب لهذا المنصب. كان يتابع بقلق بالغ تعيين واختيار كبار موظفي الشؤون العسكرية والإدارية. كان يقوم ببعض هذه التعيينات بنفسه وكان يستشير في بعضها الآخر.

كان يختار بنفسه ويتفحص بصفة خاصة أولئك الذين سيتم تعيينهم بوظائف القصر. وكان يدقق ويستقصي عن طبائعهم وأخلاقهم وطريقة حياتهم. وكان لديه مجموعة كبيرة من الصور الفوتوغرافية للموظفين العاملين في قصر يِلْدِزْ. لا يلتفت إلى الآراء الشخصية للموظفين الذين سيعينهم، بل كان أصحاب الكفاءة والجهد يحظون باعتماده أسرع من الآخرين. لم يغب عن عينيه أصحاب الخبرة والكفاءة أيا كان نوع مهنتهم.

كان يوجد من بين العاملين في القصر العديد من الأفراد الذين ينتمون لأسر فقيرة. حيث تم ضمهم للقصر بعد تخرجهم من المدرسة وحصولهم على المركز الأول. لأن السلطان عبد الحميد كان يضم إلى كوادره أوائل الطلبة الذين تخرجوا من المدارس. عدد كبير من الياورين[1] كان من الشباب المتفوقين خريجي مدارس الدولة بأعلى الدرجات. وكانوا في نفس الوقت يجيدون عدة لغات أجنبية تحدثاً وكتابة.

يقول "سِير هنرى وود" في مذكراته عن الإدارة القوية للسلطان عبد الحميد:

"يعترف كل من أُتيحت له الفرصة للتعرف على السلطان بأنه كان

---

١ الياور: كلمة تركية ومعناها المرافق الشخصي. وهي أيضا رتبة عسكرية عثمانية وتعني رئيس حرس الأمير وله مهمة محددة وهي أن يحمل السيف أمام ضيوف الدولة ويسير امامهم مستعرضا حرس الشرف.

صاحب شخصية تأسر محاوريه. كان جوزيف تشامبرلين (أحد كبار رجال الدولة الإنجليز ١٨٣٦- ١٩١٤م) قد قال لي فيما بعد: إنه حينما زار تركيا، رأى عبد الحميد مرتين وأدرك أنه هو الشخص الوحيد من بين الأتراك الذين عرفهم والذي يليق بأن يكون حاكماً للدولة...

لم يكن من طبعه تيسير حركة أعدائه (منحهم ما يتمنونه). وكان يتفادى منح أعدائه الورقة الرابحة... لا يكنّ بغضاً للمسيحيين ولا عداوة للأرمن. كان هناك أرمن بين أكثر الموظفين الذين يثق بهم. والأهم من هذا كله أنه لم تكن لديه معتقدات باطلة.[1]

هـ . الأحداث السياسية الهامة في عهده

١. ثورة البلقان، والحرب العثمانية الروسية ١٨٧٧-١٨٧٨م (حرب ٩٣)

كانت الحرب التي اندلعت قبل توليه العرش بشهرين بين الصرب والجبل الأخضر ما زالت مستمرة. هذه الحرب كانت سببا في إثارة الرأي العام العثماني، وخاصة أن الناس الذين علموا بتلك الأحداث عن طريق الصحافة بدؤوا يدعمون قرار الحرب بالأموال والأنفس. كانت الحكومة تعلن لدول أوروبا أنها لم تكن طرفا في الهجوم، وأنها اضطرت لدخول الحرب تحت ضغط الصرب والجبل الأسود. فكانت الحكومة تأمل أن تجني من وراء صنيعها هذا الدعمَ في الساحة السياسية. وفي الحقيقة، كان هذا التفكير في محله، لأنه في ٨ يوليو ١٨٧٦م وقّعت كل من روسيا والنمسا -التين كانتا تتنافسان للسيطرة على المنطقة- معاهدةَ Reichstad. وأخذت الدول التي تنتظر نهاية الحرب لكي تتدخل -إن انتصرت الدولة

1 Woods; a.g.e., s. 113-139

العثمانية- وتساهم في استمرار الوضع كما كان قبيل الحرب.[1] أما إذا انهزمت الدولة العثمانية فإن الصرب والجبل الأسود والنمسا كانوا يعتزمون تقسيم البوسنة والهرسك فيما بينهم. وإذا منيت الدولة العثمانية بهزيمة كبيرة ستكون الأرناؤوط، وبلغاريا، وروملي الشرقية ثلاث دول صغيرة شرط عدم إقامة دولة سلافية واحدة وكبيرة. باختصار، لو ظفرت الدولة العثمانية بخصومها، فلن تحقق مكاسب! وإنما تستطيع بهذا النصر فقط أن تحمي نفسها من التمزق.

لقد انتهت الحرب في كل مكان بانتصار الدولة العثمانية، وفي ٢٤ أغسطس ١٨٧٦م طلب الصرب من الدول الكبيرة التوسط لعمل هدنة. وأثارت هزيمةُ السلاف انفعالا كبيرا في روسيا. وهكذا دار الحديث حول تدخل روسيا. وبينما كان الرأي العام في إنجلترا ضد الدولة العثمانية كانت الحكومة الإنجليزية تطلب الهدنة من الدولة العثمانية لكي تحول دون تقدم الروس. وعلى العكس كانت الدول على وشك أن تتخلى عن سياسة الحياد التي كانوا يتبعونها. وأوقفت الإدارة العثمانية الحرب لتقبل السلام وهي في حالة انتصار. إلا أن شروطها لم تلق قبولا على الرغم من بساطتها. خاصة أن إنجلترا أرادت امتيازات جديدة للصرب والجبل الأسود، مع إعطاء الحكم الذاتي للبوسنة والهرسك، وأيدت الدول الأخرى هذا المطلب. اعتمدت الصرب على هذا التدخل وكررت الهجوم في ٢٥ سبتمبر إلا أن جيوشها هُزِمت، وهكذا فُتح طريق بلغراد أمام العثمانيين. وفي هذه النقطة، تدخلت روسيا وأعلنت أنها ستدخل الحرب برفض الهدنة خلال ٤٨ ساعة (٣١ أكتوبر١٨٧٦م). ولأن رفض

1 Erarslan; a.g.m., s. 247

الهدنة كان يعني بالنسبة للدولة العثمانية وقوع حرب مع الروس تم القبول الإجباري لهذا الوضع. وعليه أصبحت روسيا صاحبة القيادة بين الدول. وكانت روسيا ستحل القضية بنفسها إن لم تتدخل إنجلترا والدول الأوروبية الأخرى. أعلنت روسيا في تلك الأيام التعبئة الجزئية، وأقلق هذا الأمر إنجلترا في الوهلة الأولى. لذا أشارت الحكومة الإنجليزية على الدولة العثمانية بقبول فكرة عقد مؤتمر في إسطنبول.

أثناء ذلك قررت حكومة السلطان عبد الحميد في الدولة العثمانية إعلان "الدستور" نزولاً على رغبة الدول الأوروبية في الإصلاح في نفس يوم إعلان المؤتمر حتى تتركه معلقاً. في النهاية في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦م أُعلن القانون الأساسي (الدستور) في بداية مؤتمر إسطنبول (مؤتمر الترسانة). وكان ممثلو الدولة العثمانية يظنون أن إعلانهم عن قيام الحكم الدستوري بصدور "القانون الأساسي" في المؤتمر يعني استجابة الدولة العثمانية لرغبة الدول الكبرى بعمل إصلاحات لصالح المسيحيين، ويعني أيضا تلاشي الهدف الذي من أجله تم انعقاد المؤتمر، إلا أن هذا التصرف لم يؤثر على ممثلي دول أوروبا. في نهاية المباحثات التي لم يشترك فيها ممثلو الدولة العثمانية، اقترحوا أمورا تشترط الحكم الذاتي للبلقان. فرفضت الدولة العثمانية هذه الشروط. علاوة على ذلك وقَّعت كل من إنجلترا وروسيا بروتوكولا في لندن ٣١ مارس ١٨٧٦م يجبر الدولة العثمانية على قبول السلام. هذا البرتوكول كان يهدف إلى حماية سلام أوروبا، وتعهّد الحكومة العثمانية بحسن رعاية المسيحيين بعمل إصلاحات لهم. في النهاية تم رفض شروط هذا البرتوكول في ١٢ أبريل ١٨٧٦م في أعقاب اجتماعات مجلس الأعيان والمبعوثان العثماني، وقد

فتح هذا الرفض الطريق إلى الحرب الروسية (حرب ٩٣). وفي ٢٤ أبريل ١٨٧٦م بدأت روسيا الحرب بإدخالها الجنود إلى البلقان.

أبلى كل من الغازي عثمان باشا في البلقان وخاصة في "بَلَوْنَه"، والغازي أحمد مختار باشا في شرق الأناضول بلاء حسنا وبطوليا إلا أن تلك البطولات مع الأسف لم تكف لكسب الحرب. وشوّش التوغل الروسي السريع في البلقان أذهان الأوساط الإدارية في إسطنبول. أثناء ذلك احتل الروس صوفيا في يناير ١٨٧٨م. وفي ٢٠ يناير احتلوا أدرنة. أما في الجبهة الشرقية فقد حطموا معنويات العثمانيين تماماً باستيلائهم على "بايزيد الشرقية" في ٢٠ أبريل، وفي ١٧ مايو استولوا على "أَرْدَخان". وبحلول ١٩ نوفمبر استولى الروس أيضا على مدينة "قارص".[1] وبعد هذه المرحلة كانت الحكومة العثمانية مضطرة إلى طلب الهدنة، لأن الجيوش الروسية استولت على البلقان ووصلت إلى مشارف إسطنبول، أما الناس فكانوا يعيشون في قلق كبير.

لم يستطع السلطان العثماني عبد الحميد -والذي كان يعارض بشدةٍ الدخول في الحرب بهذه الطريقة- أن يتصدى لهذا الوضع بأي طريقة خاصة مع قبول مجلس المبعوثان دخول الحرب، وضغطِ الأشخاص المؤيدين لقرار الحرب وعلى رأسهم مدحت باشا. كانت تجري مناقشات حادة في المجلس. عندئذ، وبسبب الارتباك والاكتئاب اللذين جلبتهما الحرب قام السلطان عبد الحميد بتجميد نشاط مجلس المبعوثان (تعطيله) لأجل غير مسمى متجاهلا الدستورَ. وهكذا عادت كل مجريات الأمور إلى يد السلطان عبد الحميد، الحاكم المطلق، الذي لديه كل السلطات.

1 Erarslan; a.g.m., s. 248

أصلاً كان السلطان محمد الفاتح، وياوز (سليم)، وسليمان القانوني، ومراد الرابع، ومحمود الثاني حكاماً أقوياء، أما هو (أي السلطان عبد الحميد) فكان يحكم كل شيء في بيئة بدأت السلطة فيها تنقسم، حتى أخذ هذا الانقسام صفة مؤسسية، لذا كان عليه أن يضع حدا لهذا الانقسام. وهذا الأمر كشف عن مميزات فترة حكمه الفردي.[1]

في هذه النقطة، وبعد كل التطورات السلبية التي وقعت، أرسل السلطانُ الصدرَ الأعظم مدحت باشا المسؤول عن الهزيمة إلى منفي "برينديزي".

وحينما انتهت الحرب كان الجيش العثماني قد مني بهزيمة كبيرة. وأصبح الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو التفاوض مع العدو لتحجيم الخسارة. وبالفعل تم توقيع معاهدة أياستفانوس (يشيل كوي) في ٣مارس ١٨٧٨م. ومن ضمن شروط المعاهدة:

١. قيام الدولة العثمانية بتوسعة أراضي رومانيا، والجبل الأسود، والصرب. وستمنح Niş للصرب، وستتم توسعة الجبل الأسود حتى بحر أدرياتك، وسوف تترك منطقة باسَرابْيا لروسيا.

٢. تصبح بلغاريا إمارة تتمتع بالحكم الذاتي بشرط دفع ضريبة للدولة العثمانية.

٣. يمنح الحكم الذاتي للبوسنة والهرسك حتى تعمل إصلاحات.

٤. ضم تساليا إلى اليونان.

٥. سوف يتم ترك (قارص،أردخان، باطوم، بايزيد الشرقية) لروسيا.

٦. يعمل إصلاحات متنوعة في بلاد الأرمن وكريت.

---

1 Ortaylı; a.g.e., s. 89-90

٧. تَدفع الدولة العثمانية ٣٠٠ مليون روبلة إلى روسيا كغرامة حرب.

من الواضح أن الروس حققوا بهذه المعاهدة مكاسب كبيرة في البلقان وشرق الأناضول.

من السهل عند النظر في شروط المعاهدة أن نجد تفسيرا للوضع، إنه يعني سيطرة روسيا على المضايق، ونزولَها حتى البحار الدافئة بناء على وصية "باترو الأول" قيصر روسيا. رأت الدول الأوروبية أن هذا الوضع ضد مصالحها هي، فعبَّرت في الحال عن رد فعلها. فقررت فيما بينها عمل صياغة جديدة بحجة ثقل شروط معاهدة أياستفانوس، ثم قامت بدعوة الدولة العثمانية لمؤتمر سيتم عقده. في ٢٥ مايو ١٨٧٨م، فطلبت إنجلترا من الدولة العثمانية أن تمنحها جزيرة قبرص بصفة مؤقتة لتنشئ بها قاعدة عسكرية لها مقابل التوسط لصالح الدولة العثمانية ودعمها أثناء المؤتمر. في نهاية المباحثات وافق الباب العالي (الحكومة) العثماني على هذا الاقتراح. في تلك الظروف عقد مؤتمر برلين ١٣ يونيو ١٨٧٨م، وتم في نهايته توقيع معاهدة برلين ذات ال٦٤ بنداً فيما بين الدول المشاركة.

وبناء على هذه المعاهدة:

١.تم تقسيم الأراضي المعطاة لبلغاريا بموجب معاهدة أياستفانوس إلى ثلاثة أقسام. يُترك قسم مقدونيا للدولة العثمانية بشرط عمل إصلاحات بها. يتم تعيين وال مسيحي على روملي الشرقية وتمنح الحكم الذاتي. أما بلغاريا فتصبح إمارة تدفع ضريبة للدولة العثمانية.

٢. تسلم إدارة البوسنة والهرسك للنمسا.

٣. تحول مناطق الجبل الأسود، والصرب، ورومانيا إلى دول مستقلة تماماً.

٤. تترك قارص، وأردَخان وباطوم لروسيا مقابل ترك "أَلَشْكِيرْتْ" و"بايزيد" الشرقية للدولة العثمانية.

٥. تُجري الدولة العثمانية الإصلاحات في المنطقة التي يسكنها الأرمن.

٦. تطبيق معاهدة لندن ١٨٤١م المتعلقة بالمضايق.

٧. سيتم ترك تالسيا لليونان.

٨. سيتم السير في نهر الدانوب تحت إشراف لجنة نقل على أن يسمح للسفن التجارية بالمرور فيه ويغلق في وجه السفن الحربية.

٩. تَدفع الدولة العثمانية ٦٠ مليون ليرة تركية كتعويضات حرب لروسيا.

كانت معاهدة برلين معاهدة ثقيلة الشروط فقدت فيها الدولة العثمانية أراضي كثيرة.

ومرة أخرى أصبح مؤتمر برلين اجتماعاً للمصالح تتسابق فيه الدول المسيحية مع بعضها البعض لكي يستطيعوا نهش أشياء أخرى من العثمانيين. في أعقاب مؤتمر برلين أصبح الإنجليز أصحاب الكلمة في مصر وقبرص، والنمساويون أصحاب الكلمة في البوسنة والهرسك، أما في تونس فكان الفرنسيون هم أصحاب الكلمة.

٢. احتلال إنجلترا لقبرص

من الممكن اعتبار فترة عبد الحميد الثاني فترة ابتعاد الدولة عن القتال الفعلي باستثناء الحرب الروسية - العثمانية ١٨٧٧-١٨٧٨م والتي كانت في بداية توليه العرش، والحربِ العثمانية اليونانية عام١٨٩٧م. إلا أنه في تلك الفترة وقعت أحداث هامة؛ فأصبحت قبرص تابعة لإنجلترا، واحتلت فرنسا تونس عام ١٨٨١م، واحتلت إنجلترا مصر عام ١٨٨٢م.

أما حالة الدولة في ظل هذه الاعتداءات فإن عصر عبد الحميد كان مرآة انعكست عليها حالة الدولة، فلم تستطع الحكومة أن تفعل شيئاً سوى إرسال مذكرات احتجاج إلى الدول الغاصبة. كان موقف إنجلترا -المفترض أنها صديقة قديمة للدولة من بعد التنظيمات وخاصة فرمان الإصلاح- موقفاً شديد الأهمية.

وكانت إنجلترا التي تخلت عن الدولة العثمانية في حرب ٩٣ قد استفادت من إشعال روسيا للتمرد وتدعيمها له بسياساتِ القومية السلافية (Pan-Slavism) واستغلت تحرك الدولة العثمانية كصاحبة حق لقمع هذا العصيان، وتدخلت في الأمر على اعتبار أن إقامة الروس دولة تمتد حتى بحر إيجة في البلقان، ووصولَهم حتى إسطنبول هو أمر يضر بمصالحها، وتولت هي (أي إنجلترا) القضية حينما مست نتيجةُ الحرب مصالحها الشخصية.

وقررت إنجلترا في مؤتمر برلين المنعقد في يونيو ١٨٧٨م، أن تستولي على قبرص التي كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية منذ عام ١٥٧١م بفكرة أن الدولة العثمانية لن تتمكن من التصدي لتوغل الروس في الجنوب، وبدأت في تنفيذ مرادها. وفي مؤتمر برلين بينما كانت تدافع عن الدولة العثمانية أدخلت جنودها إلى قبرص في ٤ يونيو ١٨٧٨م كوضع مؤقت، علاوة على استخدامها كمركز عسكري تكميلي، إلا أنها لم تخرج منها بالطبع.

وبينما كانت إنجلترا تثبت أقدامها في قبرص على اعتبار أنها "مفتاح آسيا من جهة الغرب" بدأت العمل نحو منع تواجد الروس على المضيق المؤدي إلى الهند من الجنوب الشرقي. ولتحقيق هدفها ولضمان سيطرتها على المنطقة وافقت على إنشاء دولة أرمينية في منطقة جنوب

شرق الدولة العثمانية. ونصت المادة ٦١ من معاهدة برلين على عمل إصلاحات لصالح الأرمن الذي يعيشون في شرق الأناضول، مع قبول أن تكون الإصلاحات تحت إشراف الدول الأوروبية. هذا البند الذي يهدف إلى تخليص الأرمن من نفوذ روسيا كان يتم استغلاله دائما للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بصفة مستمرة من قبل الإنجليز. علاوة على هذا فإن إنجلترا أخذت تُوجّه منافِستها فرنسا في مصر إلى ميدان آخر بهدف تخفيف المعارضة التي ستحدث ضد استيلائها على مصر فيما بعد، وحمايةِ مركزها بين الدول الأوروبية. فساعدت فرنسا على الاستيلاء على "تونس" التي كانت "ثمرة يانعة فوق الغصن"، وبهذا أبعدت قوة فرنسا الاستعمارية عن مصر. وسوف نتعرض لاحتلال فرنسا لتونس، واحتلال إنجلترا لمصر بشكل مفصل لكونهما سببا لتغيرات هامة في سياسة السلطان عبد الحميد.

٣. احتلال فرنسا لتونس

خلال النصف الثاني من القرن ١٩ بدأ ينتشر النفوذ الأجنبي ورأس المال الأجنبي في تونس (التي تم ضمها للأراضي العثمانية في عام ١٥٧٤م). فكانت الدول الأجنبية تسعى نحو ترسيخ قدمها في تونس، إنجلترا كصاحبة امتيازات قنوات الري والغاز والسكة الحديدية، وفرنسا عن طريق المؤسسات الائتمانية (القروض)، وإيطاليا كمزارعين وعُمّال. وكانت كل من فرنسا وإيطاليا -خاصة بعد إتمام وحدتها الوطنية- يتنافسان على الاستيلاء على تونس، لاسيما وأن إنجلترا لا تنوي احتلالها. أما الحكومة العثمانية فبدأت تهتم بتونس فقط من بعد معاهدة باريس ١٨٥٦م. وبعد وفاة "محمود باشا" عام ١٨٥٩م عُهد إلى "محمد صادق" باشا بإدارة

تونس مع رتبة الوزارة، وفي عام ١٨٧١م تمت الاستجابة لطلب الباشا بجعل ولاية تونس لعائلته من بعده. وهذه شروط التوريث:

١. دفعُ تونس ضريبة سنوية.

٢. ذكر اسم الحاكم العثماني في خطب الجمعة.

٣. نقش طغراء السلطان على النقود

٤. بقاء الراية (العلم) كما هي.

٥. على تونس في حالة دخول الدولة العثمانية حرباً أن تمدها بـ١٢ ألف جندي.

ترك حاكم تونس أمور الحرب والسلام للدولة العثمانية، وتولى الأمور الداخلية، وتمتع بحق إقامة علاقات طبيعية مع الدول في الخارج. هذه العلاقات المستقرة كانت مرتبطة بجهود خير الدين باشا، كما كانت مرتبطة بحاجة والي تونس لدعامة قوية لمواجهة دول أوروبا. إلا إن محمد صادق باشا، الذي عزل خير الدين باشا بإيعاز من كل من القنصل الإنجليزي ونظيره الفرنسي خاصة في حرب ١٨٧٧-١٨٧٨م، لم يقدم المساعدة العسكرية كما أوجبت المعاهدة. ولم يكن بإمكان الدولة العثمانية أن تتابع هذا الأمر نظرا لانشغالها بهزيمتها في الحرب. ونتيجة لذلك البند الذي تم تأجيله واستبعاده من معاهدة برلين، اعترضت فرنسا على إنجلترا وألمانيا فوعدتاها بألا يتعرضا لها إذا هي احتلت تونس. ولما كشف الإيطاليون عن أطماعهم في تونس عام ١٨٨١م، وتذرعت الحكومةُ الفرنسية بهجوم قبيلة (krumer) الموجودة في تونس على الجزائر التي في حمايتها، وبدأ في التوغل في الأراضي التونسية تحت مسمى "تأمين الحدود" بـ٢٠ ألف جندي في ٤ أبريل ١٨٨١م. وحاولت الدولة العثمانية

الحفاظ على حقها بالطرق الدبلوماسية معلنة عدم شرعية هذا الاحتلال، إلا أنها اضطرت لقبول الأمر الواقع حينما لم تستطع أن تدعم احتجاجتها المشروعة بالقوة المادية.[1]

٤- الاحتلال البريطاني لمصر

في عام ١٥١٧ وبعد أن انتصر السلطان "سليم خان" في معركة الريدانية (Ridaniye) انضمت مصر -التي تتمتع بموقع جغرافي شديد الأهمية في الشرق الأوسط بكونها معبرا إستراتيجياً بين الشرق والغرب- إلى الأراضي العثمانية، وظلت لأعوام طويلة أحد المنابع الغنية التي تخدم الدولة العثمانية. ولكن مصر مع حلول القرن ١٩ كانت قد أصبحت محور المشاكل، لاسيما وأن والي مصر "محمد علي" باشا أعلن التمرد ضد الدولة العثمانية في بدايات عام ١٨٣٠م.

وبعد سجالات استمرت أعواماً طويلة، تمت تسوية الخلاف بمعاهدة "لوندرة" (لندن) عام ١٨٤٠م. وبناء على الامتيازات المعطاة تمت الموافقة على إعطاء ولاية مصر لأحفاد محمد علي باشا من بعده. وأما مصر فأصبح حكمها حكماً ذاتياً. وهكذا ابتعدت الدولة العثمانية ولو بشكل جزئي عن قطعة هامة من أراضيها.

كانت مصر خاضعة شكليا للدولة العثمانية، ولكنها فعليا كانت تحت حكم "محمد علي" باشا، وقد اكتسبت مصر أهمية بشكل جدي حينما شقت في أراضيها "قناة السويس" التي تربط بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الهندي، وتم افتتاحها عام ١٨٦٩م. لأن موقع هذه القناة كان في منطقة حيوية في الطريق المؤدي إلى مستعمرات بريطانيا الموجودة

---

1 Erarslan; a.g.m., s. 247-251

في الشرق. لذا كان لابد من الاستيلاء على مصر من أجل حماية الهند التي هي "لؤلؤة بريطانيا في الشرق"، والخلاص من التهديد الروسي في الشمال، وحماية الطرق المؤدية إلى الهند من هجوم قوات الأعداء أيضا.

سمح الباب العالي لمصر اعتبارا من عام ١٨٧٢م بالاقتراض من الخارج. وكان دخول أخداء مصر دائرة الاقتراض بهذا الشكل الفوضوي والمسرف سبباً في مضاعفة الديون بسرعة كبيرة مما أوقع بمالية مصر تحت سيطرة الدول الأجنبية. فالذين لم يستطيعوا أن يحصّلوا نقودهم من مصر راجعوا بريطانيا وفرنسا، فطلبوا منهما حماية حقوقهم. وهنا خططت بريطانيا للاستفادة من الأزمة المالية التي تواجهها مصر. وانطلاقاً من هذا المخطط، لما سمع دزرائيلي (Disraeli) رئيس وزراء بريطانيا رغبة خديو مصر في بيع أسهم قناة السويس تحت وطأة الديون المفرطة، قام بشراء تلك الأسهم بمبلغ ٤ مليون جنيه إسترليني حتى دون أن يستشير وزير ماليته، وبذلك بدأ يرسخ وجود الإنجليز في مصر..

في عام ١٨٧٦م أسست بريطانيا لجنة مشتركة مع فرنسا لرصد الحالة المالية لمصر، وفي عام ١٨٧٨م نجحت بريطانيا في إدخال عناصر هذه اللجنة في الحكومة المصرية تحت مسمى "ناظر" أي مراقب. وفيما بعد تم إنشاء "إدارة الديون العمومية" عام ١٨٨١م من أجل تحصيل الديون المستحقة، واستطاعت بريطانيا بإنشاء هذه الإدارة أن تضع يدها على ٨/٧ من الإيرادات المصرية.

ومتزامنا مع كل هذه التطورات، أثار انتقالُ الإدارة إلى يد الأجانب، واحتقارُ المواطنين من قِبلهم المعارضةَ الدينية والوطنية. وأجبرت الحكومة على الاستقالة تحت ضغط المعارضة التي تشكلت باسم "الوطنيون"، وتم

إرسال مراقبين أجانب إلى هناك. وفيما بعد أصبح "توفيق باشا" خديواً لمصر بضغط من إنجلترا وفرنسا (١٨٧٩م).[1]

لقد اتبع الخديوي "توفيق باشا" سياسة مؤيدة للغرب. فمهد هذا لزيادة ضغوط "الوطنيون" على الساحة، وفي النهاية أصبح "الوطنيون" هم من يسيطرون على الحكومة. ولم يُرضِ هذا الوضعُ لا السلطانَ العثماني ولا الغرب. ولأن السلطان عبد الحميد أحسّ بأن الدول الغربية ستتدخل في الأوضاع بمصر بعد هذه المرحلة طلب من الخديوي أن يهدئ الأوساط حتى يتضح ماذا سيفعل الغرب حيال الموقف في مصر.

في النهاية، لما رأت كل من بريطانيا وفرنسا الإمبرياليتان واللتان كانتا تَرَيان الوقائع التي تَحدُث في مصر خطراً يهدد مصالحهما في المنطقة أرسلتا سفنهما الحربية إلى ميناء الإسكندرية بمصر للسيطرة على الموقف تماما، وطلبت القوات الفرنسية والبريطانية عَزْلَ الوزراء "الوطنيين" إلا أن رغبتهم تلك رفضت.

أرسلت الدولة العثمانية وفدا برئاسة "درويش باشا" إلى مصر؛ لأنها كانت تريد أن تحل القضية بالسياسة بدلاً من القوة.[2] ولكن الوفد لم يستطع أن يحقق نتيجة من خلال المباحثات. أما البريطانيون والفرنسيون فلأنهما لم يتفقا على فكرة التدخل لمصر قررا مناقشة الموضوع في مؤتمر، (١٨٨٢/٦/٢٣م). وفي هذه اللحظة التي أدركت فيها إنجلترا أن المؤتمر سَيَحُول بينها وبين طموحاتها احتلت مصر بحجج واهية. وبطبيعة الحال لم يلق هذا التصرف قبولاً من الدولة العثمانية، إلا أن وضعها لم

---

1 Erarslan; a.g.m., s. 247-251

2 Bayram Kodaman; "II. Abdülhamid", DGBIT, Cilt 12, Çağ Yayınları, Istanbul 1990, s. 112

يكن يسمح لها بالخوض في الحرب في تلك المنطقة. وأعلنت بريطانيا أن احتلالها هذا هو احتلال مؤقت. وفي الحقيقة لم يصدق أحد هذا الادعاء. حيث كان الجميع يدرك أن بريطانيا ستستقر هناك من أجل تأمين طرقها المؤدية لمستعمراتها في غرب آسيا والشرق الأوسط.

وهناك جانب أخر للحدث، وهو نقطة تحول شديد الأهمية في السياسة الخارجية العثمانية. لأن السفير البريطاني في إسطنبول آنذاك (Dufferin) أعطى السلطان العثماني ضماناً بعدم تفكير بريطانيا في الحصول على أي امتياز، لدرجة أنها لا تسعى إلى الحصول على أي امتيازات تجارية في مصر.[1] وهكذا خَدعت بريطانيا الدولةَ العثمانية، وتركت الحكومة في حالة عجز، واستمرت في احتلالها لمصر. وبعد هذا الموقف أصبحت بريطانيا ضمن الدول الأعداء في سياسة الدولة العثمانية الخارجية، وضيعت مكانتها التي كانت تتمتع بها في الدولة العثمانية.

وهكذا، تمكنت بريطانيا من الوصول إلى هدفها مرة أخرى مستعينة بالحيل السرية، والدبلوماسية المضللة، واستولت على مصر بحجة تأمين الطريق المؤدي إلى الهند من بعد استيلائها على قبرص. في النهاية تم حل قضية مصر بالطرق الدبلوماسية بواسطة الاتفاق الذي يحمل الشرط التالي: "أن يكون الخديوي تابعا للسلطان العثماني ولكن تحت إشراف مراقبين ساميين سوف ترسلهم الحكومة البريطانية والحكومة العثمانية".[2]

وكانت بريطانيا تفكر أن الدولة العثمانية هي "خط الدفاع الأول" ضد

1 Cevdet Küçük; "II. Abdülhamid" DIA, Cilt 1, TDV Yayınları, Ankara 1993, s. 218-219

2 Ercüment Kuran; "II. Abdülhamid'in Büyük Devletlere Karşı Uyguladığı Siyasetin Esasları", IÜ-EF II. Abdülhamid Dönemi Semineri, IÜEF Yayınları, Istanbul 1994, s. 143

أي خطر كان، وأما الثالوث "قبرص، مصر، مالطة" فهي "خط الدفاع الأساسي".[1] وانطلاقا من هذه النقطة فإن قضية مصر كشفت عن أن بريطانيا قد ضحت بالدولة العثمانية بمعنى الكلمة، ولم تعد تنفذ سياسة "الحماية". إذن فماذا كانت الدولة العثمانية تفكر في ذلك الوقت؟ لنقدم فيما يلي جزءاً من المقابلات التي أجراها جاسوس بريطانيا Vambery مع السلطان "عبد الحميد":

عرض السلطان "عبد الحميد" على "لندن" التوصل إلى اتفاق بينهما، وأرسل مع وسيطه Vambery رسالة شفهية يقول فيها: "إنني أرغب بشدة في التوصل إلى اتفاق مع الإنجليز، وتطبيقاً لهذا الأمر فإنني لن أعترض على أي تنازلات تتعلق بإتمام هذا الاتفاق، على أن يكون لديهم أيضا الرغبة نفسها" وأنه (أي السلطان عبد الحميد) ينتظر دائما حتى اللحظة الأخيرة عودة "الحبيب القديم" له مؤمناً بأن بريطانيا دائما تحتاج إلى تركيا لمواجهة روسيا، وأنه نفذ سياسة "الحياد التام" في العلاقات الدولية. لذا لم يبد ميلاً قط في الاقتراب من أي قوة أوروبية. وفي هذا الإطار لم يسع أبداً لعقد اتفاق مع أي دولة، وكان يتأرجح بتأييده من دولة لأخرى مثل بندول الساعة.

كان عبد الحميد يأمل من الدول العظمى أن تبدي احتراماً لمبادئه، كما يطمع منها أن تتلطف معه، وذلك لما تتمع الدولة العثمانية من مكانة. ولم تغب إنجلترا قط عن عينيه حتى وهو يطبق إستراتيجية "عدم الانحياز"، لأنه كان يعرف أن لبريطانيا دوراً هاماً في حماية النظام الدولي ويدرك قدرتها على تحقيق التوازن بين الدول وكأنها رافعة.[2]

---

1 Selim Deringil; "Sultan II. Abdülhamid'in Dış Politikası", TCTA, Cilt 2, Iletişim Yayınları, Istanbul1991, s. 304

2 Mim Kemal Öke; Saraydaki Casus; Gizli Belgelerle II. Abdülhamid Dönemi ve Ingiliz Ajanı Yahudi Vambery, Hikmet Neşriyat, Istanbul 1991, s. 251-252

٥- اتحاد ولاية روملي الشرقية مع بلغاريا

في سبتمبر عام ١٨٨٥م عزل الوطنيون في بلغاريا -التي انفصلت عن الدولة العثمانية كإمارة مستقلة تابعة لها في أعقاب مؤتمر برلين ١٨٧٨م- والي روملي الشرقية "جاوريل باشا" (Gabriel Krestowtch) وسجنوه، ثم أعلنوا اتحاد البلغاريتين. فاستغل الصرب هذه الواقعة وشنوا هجوماً على بلغاريا، إلا أنهم هُزِموا. ولم تستطع الدولة العثمانية في البداية أن تتخذ موقفاً واضحا حيال هذا الاتحاد. وبينما كان "سعيد باشا" الصدر الأعظم يحبذ التدخل العسكري، كان منافسه "كامل باشا" يفضل حل القضية بالطرق الدبلوماسية. على حين كان السلطان "عبد الحميد الثاني" يرجح الطريقة السِلمية، وبموجب الاتفاق الذي تم مع البلغار في ٢٤ مايو ١٨٨٦م تم تنصيب الأمير البلغاري "ألكسندر" (Alexandre) على ولاية روملي الشرقية، مع استمرار أداء الضريبة التي تدفعها الولاية للدولة العثمانية، وتركِ مناطق (Rupçoz,Kırcaali) الهامة عسكريا تحت قيادة الدولة العثمانية.

أصبحت ولاية روملي الشرقية بموجب تلك الاتفاقية متحدة بالفعل مع بلغاريا. إلا أن روسيا بدأت تعترض حيث لاحظت أن هذا يعني خروج إمارة بلغاريا عن منطقة نفوذها. فحاول بعض الجنرالات البلغاريين، بتحريض من الروس، أن يقوموا بانقلاب ضد الأمير "ألكسندر" ولكنهم فشلوا. وحينما أخذت الأمور هذا الشكل اضطر الأمير ألكسندر إلى طلب الموافقة من روسيا. ولما أُخبر بعدم ثقة القيصر الروسي به، اعتزل قطعياً عن تولي الإمارة البلغارية في ٧ سبتمبر ١٨٨٦م. وانتخب مجلسُ النواب المنعقد في عام ١٨٩٦م "فرديناند" (Ferdinand) لتولي إمارة بلغاريا. ولم تستطع الدولة العثمانية، وعلى الرغم من اعتراضها على كل هذه

المخالفات، أن تمنع حدوث هذه التطورات. واضطرت في النهاية، ونتيجة لمساعي النمسا وبريطانيا، أن تعترف بتنصيب فرديناند على الإمارة.

٦- أحداث كِرِيتْ والحرب اليونانية-العثمانية ١٨٩٧م

تم منح وَضْع قانوني خاص من قِبَل الصدر الأعظم "علي باشا" لجزيرة "كِرِيتْ" التي انضمت للأراضي العثمانية عام ١٦٦٩م. وهذا الوضع القانوني المذكور، لما أعيدت مناقشته في مؤتمر برلين ليتم إجراء إصلاحات جديدة لصالح الروم، كان قد تم اتفاق جديد يكفل حكماً ذاتياً على نطاق أوسع بإنشاء مجلس في الجزيرة أغلبه من الروم (اتفاقية Halepa أكتوبر ١٨٧٨م). بالرغم من ذلك فلما كانت غاية طموحات الروم لم تكن الإصلاحات والامتيازات بل الاتحاد مع اليونان، استمر استياؤهم متزايداً أكثر من السابق. لذا اتخذت الدولة العثمانية تدابير من شأنها أن تزيد من نفوذ الوالي في جزيرة "كريت" من أجل القضاء على هذه الاستياءات. ولكن لما كانت هذه التدابير من شأنها أن تؤدي إلى التدخل الأوروبي على المدى البعيد أدت إلى مطالبتهم بتنصيب وال مسيحي على الجزيرة. وتحت وطأة الضغوط الدولية، والمساعدات اليونانية، والمليشيات اليونانية المسلحة اضطر السلطان عبد الحميد إلى إصدار قرار بعقد مجلس لحل القضية. كانت الأحداث تسير في مجراها بالرغم من تصاعد الصراعات الدامية التي بدأت تطفو على السطح بين المسلمين والمسيحيين. وبسرعة ساقت اليونان ١٠ آلاف جندي إلى جزيرة "كريت". ودخلوا في أعقاب ذلك إلى تشابك دموي وقوي جدا ضد السكان المسلمين. وحينما وصلت تلك الأحداث فيما بعد إلى حدود الدولتين، دق ناقوس الحرب.

في النهاية شن الجيش اليوناني بمليشياته المسلحة هجوماً على

الأراضي العثمانية، إلى جانب الثورات والشغب، كل هذا ساق السلطان العثماني -رجل السلام في الأساس، والذي حاول أن يتجنب اندلاع الحرب- نحو حرب كبيرة جداً. وترتب على ذلك أن أعلنت الدولة العثمانية الحرب على اليونان في ١٨ أبريل ١٨٩٧م.

استمرت الحرب العثمانية-اليونانية ٨ أشهر، وانتهت بنصر عسكري كبير للعثمانيين في ١٨ ديسمبر ١٨٩٧م. كل تلك الأحداث التي وقعت، والنصر الكبير الذي تحقق كان يماثلهما ضغوط من القوات الأجنبية بنفس الحجم. فعلى الرغم من انتصار الدولة العثمانية في الحرب إلا أنها لم تستطع أن تحول دون تعيين وال مسيحي على جزيرة "كريت" تحت ضغط من دول أوروبا. وهذا معناه خروج جزيرة "كريت" فعلياً عن سيطرة الدولة العثمانية. لأنه على المدى البعيد لم يبق بعد هذه المرحلة إلا التحاقها الفعلي باليونان. وأصبحت خطوة تنصيب الأمير اليوناني "يُورْكِي" (Yorgi) كـ:"مراقب استثنائي" على الجزيرة خطوة شديدة الأهمية على طريق تحقيق هذا الهدف.

ومرة أخرى تعهدت الدولة العثمانية تحت ضغط دول أوروبا العظمى بسحب قواتها العسكرية الموجودة في جزيرة كريت، تلاها شروع المسلمين القاطنين في جزيرة "كريت" في الهجرة. وفي أعقاب هذا تم بالفعل ضم جزيرة كريت للحكم اليوناني. وعلى الرغم من الانتصار العثماني على اليونان عام ١٨٩٧م، فإن كل هذه الأحداث التي ألمت بالدولة العثمانية الكبيرة نتيجة لألاعيب الدول الكبيرة آنذاك ستظل ذكرى مريرة يصعب نسيانها في تاريخ أمتنا وفي تاريخ السلطان عبد الحميد.[1]

1 Kemal Beydilli; Osmanlı Devleti Tarihi (1876-1920 Arası), Cilt 1, IRCICA, Istanbul 1999, s.111-112

٧- قضية مقدونيا

كانت بريطانيا تريد الحد من هيمنة الروس في بلاد البلقان وشرقي الأناضول. وفي معاهدة برلين نجحت في تقليص الأراضي التي اكتسبها الروس بموجب معاهدة "أياستفانوس" التي وقعت عليها، ولكن لم تسمح بتطبيقها لإضرارها بمصالح بريطانيا. واستجابة لضغوطه تم اتخاذ قرار بعمل إصلاحات في "مقدونيا". على أن تكون تلك الإصلاحات تحت إشراف الدول العظمى.

تثاقلت الدولة العثمانية في تنفيذ تلك الإصلاحات، فبدأ البلغاريون من أهل المنطقة (المقيمون في مقدونيا) في إقامة المظاهرات للفت انتباه الدول الأوروبية. ونجحوا في تحقيق هذا الانتباه في النهاية حتى وإن كان قد تأخر بعض الشيء. وتبنت الدول الأوروبية مشروع (Mürzsteg) في عام ١٩٠٣م والذي كان مضمونه ضد مصالح الدولة العثمانية. أفرزت اجتماع ملوك النمسا، والمجر، وروسيا في سبتمبر عام ١٩٠٣م بـ(Mürzsteg) عن صياغة مشروع إصلاح جديد شامل وواسع النطاق، ثم تم تقديمه إلى الباب العالي في أكتوبر عام ١٩٠٣م، بعد أن حصلوا على موافقة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

وتحت وطأة الضغوط اضطر الباب العالي إلى قبول برنامج الإصلاح الجديد والذي كان يضر وبشدة استقلالية الدولة العثمانية وهيمنتها. وخضعت "مقدونيا" لبرنامج إصلاح مثل برنامج جزيرة "كريت". وتم من جديد صياغة التشكيلات العسكرية والإدارية والمالية تحت ظل الرقابة الدولية والحكم الذاتي. استمرت كل تلك الأحداث من النشاطات الدامية للعصابات، والاضطرابات الداخلية الناتجة عنها حتى حروب

البلقان، إلى أن أدت إلى خروج كل الإقليم عن نطاق السيطرة.[1]

٨- مشكلة الأرمن

طفت مشكلة الأرمن على السطح مع معاهدتي برلين و"أياستفانوس" كامتداد لـ"المشكلة الشرقية" التي مصدرها أوروبا.[2]

كان الأرمن قد عاشوا على مدار التاريخ تحت الحكم الفارسي، والمقدوني، والسلفكوسي والإيطالي والبارثي والبيزنطي والعربي والتركي. لكن الأتراك السلاجقة هم من خلصوا الأرمن من الحكم البيزنطي الظالم ومنحوهم الحق في حياة إنسانية. وأثناء حكم السلطان "محمد الفاتح" تم إنشاء بطريركية الأرمن علاوة على الإدارة السياسة والدينية من أجلهم، ومنحِهم الحرية الدينية، وحماية الأرواح. تعرض الأرمن للنفي من الأناضول إلى أماكن شتى منها من قبل الروم والفرس والبيزنطيين على مدار التاريخ، وزُج بهم إلى الحروب، وتضرروا من معاملتهم كمواطنين من الدرجة الثالثة، هؤلاء الأرمن الذين عايشوا كل هذا استفادوا من دخول الأتراك إلى الأناضول لما كانوا يتمتعون به من عادات وتقاليد تتسم بالعدل والإنسانية وتؤدي إلى توحيد الصفوف. كانت هذه الفترة التي امتدت حتى نهايات القرن ١٩ هي "العصر الذهبي للأرمن" وهو عصر الوصول إلى قمة ورقي هذه العلاقات. كان العنصر الأرمني هو العنصر الأكثر استفادة من الفرص التي تعطيها الدولة العثمانية لكل رعاياها. وكانوا يُعفَون من الجندية ومن بعض الضرائب، كما حصلوا على فرصة كبيرة في مجال التجارة والزراعة والحرف، وفي الأعمال

1 Beydilli; a.g.e., s. 115

2 Bayram Kodaman, II. Abdülhamid Devri Doğu Anadolu Politikası, TKAV Yayınları, Sayı 21,Ankara 1987, s. 105-115

الإدارية. ولكونهم مرتبطين بالدولة، ومتفاهمين ومنصهرين مع القومية العثمانية تم قبول كل الأرمن باعتبارهم "الأمة المخلصة".

كان تأسيس بطريركية أرمنية بإسطنبول حدثاً يصعب أن يوجد مثله في التاريخ؛ فتحويل السلطان محمد الفاتح الأسقفيةَ الأرمنية في غرب الأناضول بعد ثماني سنوات من فتحه لإسطنبول إلى "بطريركية إسطنبول" بفرمان صادر منه عام ١٤٦١م، كان دليلاً شديد الوضوح على مدى التسامح الذي أظهره السلطان الفاتح للديانات الأخرى، ومثالا يوضِّح رؤية السلاطين العثمانيين للمستقبل. أصلاً لم يعرف التاريخ لا قبل محمد الفاتح ولا بعده تأسيسَ أيِّ حاكم -أيا كانت ديانته- مقراً رئاسياً روحياً من أجل من يدينون ديانة أخرى. وتدل كلمات "مسروب الثاني" (II.Mesrob) بطريك الأرمن الكاثوليك على أهمية هذا الحدث حيث يقول: "لو أننا وضعنا نصب أعيننا حالة الحرب المندلعة في محيطنا القريب، ووضعنا نصب أعيننا أيضا التوترات التي تملأ العالم بينما نحن على أعتاب ألفية جديدة لكان يمكن لنا أن إدراك أهمية هذا الحدث الذي وقع قبل ٥٣٨ عاماً، وكذلك أهمية التسامح بين الأديان والثقافات بشكل أحسن".

وكان من بين هذا القوم الذين يتكلمون باللغة التركية، ويقيمون حتى طقوسهم الدينية باللغة التركية مَنْ يشغلون المناصب العليا في الدولة، حيث أصبح كثير منهم وزراء أو مستشارين في وزارات الإعمار والبحرية والخارجية والمالية والخزينة والبريد-التلغراف وصك العملة، لدرجة أنه كان منهم من يؤلفون كتباً في قضايا الدولة العثمانية باللغة التركية واللغات الأجنبية. إلا أنه في الفترات التي بدأ الضعف فيها يدب في الدولة العثمانية انخدع الأرمن بوعود بعض الدول وبدؤوا في التمرد والقتال الذي انتهى

بموت عشرات الآلاف من الأتراك والأرمن، وهكذا سعوا إلى تخريب الدولة التي عاشوا تحت ظلها برفاهية قرابة ألف عام.

لقد حل الفساد في العلاقات التركية-الأرمنية حينما بدأت الدولة العثمانية تضعف، وحينما وتعرضت للتدخل الأوروبي في كل شؤونها. فدول الغرب كانت تهدف إلى فصل الأرمن عن الكيان التركي لتتمكن من الوصول إلى مصالحها عن طريق تقسيم الدولة العثمانية. لاسيما وأن بعض دول أوروبا العظمى كانت بالفعل تتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية تحت مسمى "الإصلاحات" من جهة، ومن جهة أخرى كانت تدفع بالأرمن نحو تكوين جبهة معارضة للحكم العثماني. فبدأ مجتمع الأرمن في التباعد تدريجياً عن الأتراك نتيجة لجهود الكنائس الأرمنية المحرضة وسلوك العصابات الأرمنية المسلحة والمنظمة داخل الدولة وخارجها. وبدأ الأرمن في التشاحن مع الأتراك باتفاق مسبق مع الدول الأجنبية. ولكي يتمكنوا من الحصول على الدعم الغربي قابلوا سياسة الأتراك الطيبة بإظهار أنفسهم كـ"الأقلية المضطهدة" وزعموا أن "الأتراك اغتصبوا حقوق الزعامة في الأناضول". لقد خسر الأرمن الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها بعد صدور "فرمان الإصلاحات" أي قانون الإصلاح الذي ساوى بين المسلمين وغير المسلمين. لذا في أعقاب الحرب العثمانية-الروسية ١٨٧٧-١٨٧٨م طلب الأرمن من روسيا "عدم الانسحاب من الأراضي التي احتلوها في شرق الأناضول، ومَنْحَ الحكم الذاتي للمنطقة، أو عَمَل تعديلات لصالح الأرمن". وبهذا طفت مشكلةُ الأرمن على السطح لأول مرة وبدأت تأخذ شكلاً دولياً. والبند ١٦ الموجود في معاهدة "أياستفانوس" الموقَّعة في أعقاب الحرب

الروسية-العثمانية عام ١٨٧٧-١٨٧٨م، والذي اضطرت الدولة العثمانية لقبوله ينص على الآتي: "إن إخلاء الأراضي الواقعة تحت سيطرة الجيش الروسي من "أرمنستان" التي يجب ردها إلى الدولة العثمانية، من شأنه أن يؤدي إلى حدوث مشاحنات مضرة بالعلاقات الطيبة بين البلدين.. ولذلك تتكفل الدولة العثمانية بعمل تعديلات وإصلاحات في الولايات التي يعيش فيها الأرمن، تخدم المصالح المحلية وتضمن أمن الأرمن تجاه الأكراد والجراكسة". وهذا البند من المعاهدة مع أنه لم يُرضِ الأرمنَ الذين كانت رغبتهم الأساسية هي الحصول على الاستقلال التام، إلا أنه ينطوي على أهمية كبرى من حيث طرح "المشكلة الأرمنية" في وثيقة دولية، وذكر وجود منطقة تسمى "أرمنستان".

تم تبديل البند رقم ١٦ من معاهدة "أياستفانوس" بالبند رقم ٦١ من معاهدة برلين التي تم توقيعها في نهاية مؤتمر برلين المنعقد في عام ١٨٧٨م، والبند ينص على أن "تتعهد الدولة العثمانية بعملِ الإصلاحات وفقاً لاحتياجات المناطق التي يسكنها الأرمن، وبرعاية أمن وسلامة الأرمن تجاه الأكراد والجراكسة، على أن يتم إخبار الدول بالإجراءات المتبعة في هذا الأمر، وأن هذه الدول هي التي ستشرف على تنفيذ هذه الإجراءات". لقد كفل هذا البند من معاهدة برلين حق تدخل القوى الأجنبية في العلاقات التركية-الأرمنية. وبذلك بدأ الأرمن يُستَغلون من قبل الروس والإنجليز، فتحول الأرمن بيد الإنجليز إلى معقل أمامي ضد التوسع الروسي.

إن "إشكالية الأرمن" التي ساقتها روسيا وبريطانيا إلى ساحة التاريخ، كانت في الأصل امتدادا للسياسة الإمبريالية التي تهدف إلى تحطيم الدولة

العثمانية وتفتيتها. الخلاصة أن أكاذيب وادعاءات إبادة الأرمن المزعومة لم تكن إلا نتاج الدعاية لهذه السياسة![1]

يعرض السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان يراقب الأحداث منذ خطواتها الأولى، آراءه الهامة جداً فيما يتعلق بمسألة الأرمن. فهو يقول في مذكراته عن هذا الموضوع:

"إن المشكلة الأرمنية لا علاقة لها بالأرمن. إنني أستطيع أن أقول بضمير مطمئن: إن الأمة الأرمنية هي خير مَن تبنى العثمانية، وإنهم خير من مثّلوها. وإنهم دعموا حضارتنا، وحاولوا إبقاء دولتنا. لم يضجر الأرمنيون منا أبداً. إلا أن الروس حينما تمكنوا من تحقيق أغراضهم من بلغاريا، جعلوا الأرمن ألعوبة بأيديهم لكي يتمكنوا من اقتطاع قطعة جديدة من الدولة العثمانية. فأقنعوا قساوسهم ومعلميهم عن طريق الجواسيس الذين أرسلوهم، ثم حولوا من كان منهم مولعا بالمغامرات إلى عدو لنا.

لن تجد قوما ينعمون بالراحة إن ضعفت الدولة التي تأويهم. ولأن الأرمن لم تكن لديهم قوة تُذكر بوحدهم كان باستطاعتهم أن يتمهلوا كباقي الأمم. إلا إن الإثارة والفتنة كانت كافية لتحريض بعضهم على الفور. لو تأملنا الأمر سنجد أن الروس لم يكونوا مؤيدين لتأسيس دولة أرمنية مستقل في تركيا. لأن هناك أرمنا أيضا يعيشون في داخل حدود روسيا نفسها، وهذا معناه أنهم كانوا سيطالبون بالانضمام إلى إخوانهم من الأرمن. إن غاية الروس هي الضرب بإصبع من العسل على أفواه أرمنيي روسيا (ممن يعيشون في روسيا) وإحداث غائلة على رأس تركيا فقط..

لم يمض الكثير حتى انضم الفرنسيون والإنجليز لهذا الغرض، فأرادوا

1 http://www.ermenisorunu.gen.tr/

أن تكون لهم كلمة في القطعة الجديدة التي ستُخطف من الدولة العثمانية. فأولاً تم تكوين لجنة أرمنية أقيمت في باريس وليس في تركيا، لتراقب كل شيء. كان رأس الفتنة في الخارج. بذلتُ كل ما بوسعي لكبح الفتنة،وحمايةِ العثمانيين من التخبط في الطرقات الخاطئة؛ فمن ناحية أخذتُ أُعاملهم باللين، ومن ناحية أخرى حاولت أن أَحُول بين التفافهم حول هذه الفكرة مستغلاً الخلاف بين الأرمن الكاثوليك والأرمن الأرثوذكس. كان الفرنسيون يحمون الكاثوليك بينما يحمي الروس الأرثوذكس. حاولت إخماد الفتنة في مهدها ناصحاً كل طرف على حدة دون أن أنسى أن كلا الطرفين رعايا للدولة العثمانية. فأولا قَتَل بعضهم البعض ثم توجهوا نحو قتل المسلمين.

إنني أعرف هذه المسرحية.. بل الدنيا كلها أيضا تعرفها، لأن هذا ما حدث في بلغاريا، حيث تم تحقيق الانفصال تحت مسمى الحكم الذاتي لبلغاريا. لذا كنت أحاول أن أمنع التنازع والصراع بين المسلمين والأرمن مستعيناً بقوات الشرطة. كانت غاية الأرمن هي امتثارة المسلمين، حتى يقوموا بالهجوم عليهم، ثم استغلال هذا الأمر في سبيل إثارة العالم. وبعد ذلك ستتدخل الدول الأوروبية في الأمر، وسيطالبون بالحكم الذاتي للأرمن، بادعاء أن هذين القومَيْن لا يمكن أن يعيشا معاً في أرض واحدة.

لم تلق التحريضات التي بثها الباباوات والمعلمون مع الجواسيس رغبة وقبولا من قِبَل الأرمن في الأيام الأولى؛ فكثير من الأرمن العثمانيين لم يتقبلوا تلك التحريضات ولم يلقوا لها بالا. وبناء على ذلك بدأت العصاباتُ المستأجرة تخطف أمثال هؤلاء الأرمن الوطنيين الشرفاء ثم تذبحهم وتقتلهم. كان يتم خطف هؤلاء الأرمن الشرفاء من قِبل الحكومة،

ومن قِبل العصابات. وهؤلاء الأرمن الشرفاء كانوا يخافون من الحكومة من جهة، ومن جهة أخرى من العصابات. وفيما بعد بدؤوا في حماية العصابات المستأجرة وإيواءهم ودعمهم. وبذلك انتهى الفصل الأول من المسرحية ليبدأ الفصل الثاني، حيث تنكر الأرمن في هيئة أتراك، وقتلوا بأنفسهم رفقائهم من الأرمن الذين رفضوا مساعدتهم، ثم بدؤوا يقولون للأرمن الأخرين: "ألا ترون أن الأتراك يذبحونكم، هل ما زلتم تعارضون الانضمام إلينا؟".

ومن جانب أخر كانوا يقتحمون القرى المسلمة ويعذبون سكانها المسلمين بألوان العذاب ثم يقتلونهم. فكانوا يأخذون الرجل ويشقون جسده بالسكين، ثم يحشونه بالبارود فيحرقونه ويفجرونه! فهؤلاء المحرضون الأرمن كانوا يزيدون شعلة التحريضات خاصة في إقليم "ساسون" (Sason). ولكي أُنهي الصراع بين المسلمين والأرمن دفعت بالجيش الذي تحت قيادة "مشير ذكي باشا" إلى الساحة وكبحت التمرد. وسابق سفراء الدول الكبرى بعضُهم البعض في الوصول إلى القصر (لمقابلتي) وأخذوا يقولون: إن الأرمن الضعفاء قهرهم السيف، وهذا ظلم لهم. وطالب السفير البريطاني بسرعة إنشاء هيئة للتحقيق في الأمر، وأضاف بأنه سيتم إرسال الملحق العسكري البريطاني بسرعة إلى مسرح الحدث من أجل السيطرة على الوضع هناك. ولكنني تحدثتُ بحسم مع كل السفراء، وبشكل أكثر صرامة مع السفير البريطاني وقلت: إن المسألة مسألة أمنية، وإن الجيش طهَّر المنطقة من العصابات الموجودة هنا، ثم زدت بقولي: "لا يمكنني قبول إرسالكم للملحق، لأن رؤية الملحق البريطاني هنا في مثل هذه الأيام قد يقلب الطوائف التي هدئت أعصابها،

على بعضها البعض من جديد". غادرني السفير وهو في حيرة، لأنني كنت أعلم أن في الشرق الأقصى مشاكل كبرى بين إنجلترا وروسيا في تلك الآونة، وأنه لا روسيا ولا بريطانيا ولا حتى فرنسا التي انسحبت من ألمانيا تستطيع أن تتدخل تدخلا جديا. وبالفعل لم يحدث تدخل... ولكن بريطانيا، والتي ظلت لأعوام تراقب هذا، بذلتْ كل ما في وسعها من أجل إبقاء المسألة الأرمنية متأججة، لأن تأجج مسألة الأرمن كان يغطي على الأمور المشبوهة التي قام بها في مصر، لذا كانت تُوجِّه أنظار العالم على الدوام نحو تركيا.

حينما أدرك الأرمن عجزهم عن الوصول إلى أهدافهم بالقلاقل التي يثيرونها في الأناضول، بدؤوا في إدخال العصابات والإرهابيين في إسطنبول، كماحاولوا إشاعة الفوضى في إسطنبول، وكانوا ينجحون أحيانا. ولكن دول أوروبا العظمى كانت تعلم أنني لن أمنح الحكم الذاتي للأرمن الذين لا يشكلون أغلبية في كل الأمكنة التي يتواجدون فيها متناثرين، وأنني لن أتنازل عن موقفي هذا مهما كلف الثمن. وبسبب تنافسهم مع بعضهم البعض لم يكن لديهم القدرة على دخول الحرب. لذا استمرت مسألة الأرمن حتى الأعوام الأخيرة مصدر إزعاج بالنسبة لتركيا، وحجةَ التدخلِ في تركيا بالنسبة لأوروبا. إلا أن صحف أوروبا استغلت هذه المسألة، فكانوا يكتبون عن المسألة الأرمنية بلا توقف، وينعتونني بـ"السلطان الأحمر"، وبدؤوا يحشدون الرأي العام العالمي ضدنا. وهكذا أصبحت قضية الأرمن قضية رأي عام عالمي، ولكن على مستوى العلاقات الدولية لم تصل إلى نفس المستوى. وقدم "سعيد" باشا خدمات جليلة في ذلك الشأن.

إنني لا تتملكني الحيرة لمشاركة الأرمن في حرب الاستقلال ضدنا، خاصة بعد أن أدركتُ أن الدول الكبيرة قد استغلوهم في هذا الأمر... ولكني أتعجب من تعاون بعض الـ"جُونْ تُرك" (الأتراك الجدد) -الذين هربوا إلى أوروبا، وعادوني على صفحات الصحيفة التي أصدروها- مع لجان أرمنية، وأتعجب من أخذهم نقودا منهم. يزعمون أنهم يريدون إنقاذ الدولة العثمانية من التمزق، وفي نفس الوقت يتعاهدون مع من يمزقونها، ويتعاونون معهم! فلو لم أُفسِد ما بينهم، لم يكن أحد يعلم إلى أي مدى كانوا سيصلون بهذا الأمر؟ أم إن تأسيس دولة أرمنية في قلب الأناضول كان سيصبح هو البرهان على حب الوطن؟

إنني أكتب هذا لعل هناك من يعتبر؛ وليتبين الذين يعادونني أنهم يوالون من؟! يقهرني التفكير في هؤلاء، بينما أبكي على حال الوطن اليوم! إنهم لم يدمروا عبد الحميد... كلا! أولئك هم الذين دمروا الدولة العثمانية هكذا!".[1]

ملحوظة: سيأتي الحديث عن مسألة الأرمن وأحداثها بشكل أكثر تركيزا وتأكيدا أثناء الحرب العالمية الأولى (خاصة قانون التهجير عام ١٩١٥م والنتائج المترتبة عليه).

للمراجعة التفصيلية في هذا الموضوع :

1. Arşiv Belgerine Göre Kafkaslarda ve Anadoluda Ermeni Mezalimi, 3Cilt, Başbakanlık Osmanlı Arşivi Daire başkanlığı yayını, Ankara 1995.
2. Abdurrahman Çaycı: Türk-Ermeni İlişkilerinde GerÇekler, Atatürk araştırma Merkezi Yayınları, Ankara 2000.

---

1 Bozdağ; a.g.e., s. 56-59

3. Erdal İlter: Türk- Ermeni İlişkileri Bibliyografyası Ankara 1997.
4. Recep Karacakayı, kaynakçalı Ermeni Meselesi Kronolojisi, (1878-1923) Başbakanlık osmanlı Arşivi Daire Başkanlığı yayınları, İstanbul 2001.
5. Uluslararası Türk-Ermeni İlişkileri Sempozyumu (24-25 Mayıs 2001), Bildiriler, İstanbul 2001.
6. her yönüyle Ermeni Sorunu, K.K.K. Kara Harp Okulu Komutanlığı, Ankara 2001.

ملحوظة: تم اختيار المصادر العامة من الدرجة الأولى.

٩. حادثة القنبلة

٢١ يوليو ١٩٠٥م.

تعد حادثة الاغتيال التي تعرض لها السلطان عبد الحميد الثاني في ١٩٠٥/٧/٢١م واحدة من أهم الأحداث التي تزامنت مع إعلان المشروطية. كان السلطان آنذاك يبلغ من العمر ٦٣ سنة، وكانت في السنة ٢٩ من توليه العرش.

وفي تلك الفترة كانت قد ظهرت في العالم منظمات معروفة باسم "الفوضوية" والتي أخذت على عاتقها تدمير كل الأنظمة المستقرة، واختارت لنفسها تركيا لتطبيق أهدافها في أراضيها.

والحدث الذي سُجل في التاريخ بـ"حادثة القنبلة" كان منفّذُه أحد الإرهابيين الأرمن التابعين لإحدى المنظمات المذكورة أعلاه. وكانت جماعة الفوضويين الأرمن المذكورين حصلت في مرحلة التخطيط للحادث على مساعدة من الفوضويين الدولين. وللأسف فإن رجال المخابرات التابعة للسلطان عبد الحميد لم يتمكنوا من معرفة الحادث قبل تنفيذه.

وإذا ألقينا نظرة على التصورات والتداعيات الداخلية والخارجية

للحدث في أيام إعداد الخطة وقبيل تنفيذها نلاحظ: أن اليونان الذين هزمهم السلطان عبد الحميد الثاني قبل عدة سنوات في "دومكه" عام ١٨٩٧م، وكذلك الأقلية الروم كانوا يفكرون بأن السلطان زعيم دولة يجب إطاحته على الإطلاق؛ وذلك لأنه لم يسمح لإقامة دولةٍ أرمنية في شرق الأناضول.

وكان اليهود على الجانب الأخر يفكرون في نفس الفكرة، لأنه قبل فترة قليلة لم تستطع المنظمة الصهيونية العالمية أن تحصل على مساعدة السلطان بالسماح بهجرة جزء من اليهود إلى فلسطين على الرغم من اقتراحهم على السلطان بسداد كل ديون الدولة الخارجية إن لزم الأمر، وعرضوا رشوة على السلطان بواسطة هيرتزل (Teodor Herzl) تقدر بملايين الجنيهات الذهبية. وحينما لم يتمكن أعداؤه ولاسيما الأرمن من تحقيق رغبتهم شنوا عليه حملة كبيرة لتشويه سمعته أمام الرأي العام العالمي، فنعتوه بـ"السلطان الأحمر" مفترين عليه بصفة لم تكن أبداً في السلطان عبد الحميد. وبالرغم من كل تلك السلبيات إلا أن العلاقة ما بين السلطان وبين الأقليات المسلمة كانت طيبة جداً؛ فكان العرب والأرناؤوط والأكراد والشركس والأباظة والعثمانيون المحليون في داخل البلاد يحبون السلطان كثيراً.

كان الإرهابيون الأرمن قد أعدوا خطة متكاملة جداً للتمكن من إزاحته، ولم يكن بالطبع في مقدرتهم تجاهل الاستعانة بالدول الكبيرة لتنفيذ هذه الخطة. إن وجود شخص قوي، يقظ، ذي عزيمة ودراية مثل عبد الحميد في الأراضي العثمانية، لم يسعدهم أبداً، وبسببه كانت السياسات الإمبريالية المستقبلية تتوقع منه الضرر لمصالحها. فاستعان الإرهابيون

الأرمن في تنفيذ الخطة بالبلجيكي الفوضوي المشهور "جوريس" لاعتقادهم باحترافه في عملية الاغتيالات، واتفقوا معه. وبموجب الاتفاق كان على "جوريس" أن يأتي إسطنبول ويتعقبَ بتأنٍ إقامةَ السلطانِ لشعائر صلاة الجمعة. كان السلطان يقيم صلاة كل جمعة في جامع يِلْدِزْ، ثم يخرج، ويستغرق خروجُه حتى ركوبه سيارته دقيقة كاملة و٤٢ ثانية ومن المعتاد أنه في تلك الفترة لا ينحرف عن طريقه قط. علاوة على هذا فإن "جوريس"، المستعانَ به في الاغتيال، قد صنع عربة خاصة في بلجيكا. تم إحضارها مجزئة إلى إسطنبول، ثم تم تركيبها. تم وضع القنبلة في هذه العربة. كانت القنبلة موقوتة بساعة شديدة الدقة، وتحمِل ٨٠ كيلو من المتفجرات، و٢٠ كيلو من القطع المعدنية. وفي اليوم المتفق عليه لتنفيذ الاغتيال، كان بالعربة المفخخة سيدة على سبيل التمويه، وركب الإرهابيون السيارة بهيئة متفرجين أوربيين، وتوجهوا إلى مكان المصلًى. وبينما كان السلطان يؤدي الصلاة في جامع يِلْدِزْ، تركوا السيارة ورحلوا. كان هناك زحام كبير و شديد أمام الجامع. وكان من المعتاد أن يكون بهذا المكان العديدُ من المواطنين والأجانب، والعديدُ من رجال الدولة وموظفي السفارة، حتى السياح كانوا يجتمعون لمشاهدة السلطان ورجاله يؤدون شعائر صلاة الجمعة. وكانت القنبلة التي في السيارة ستنفجر أثناء سير السلطان عبد الحميد من الجامع حتى عربته السلطانية، وكانت بلا شك ستقتله. كان كل شيء على أهبة الاستعداد.

ولكن أثناء ذلك حدث شيء لم يكن في الحسبان قط، وتعقدت كل الأمور في لحظة. لأنه في اللحظة التي أوشك فيها السلطان على الخروج من الجامع استوقفه شيخ الإسلام جمال الدين أفندي، وقَطَع الطريق إلى

السلطان وعرض عليه مسألة ما. وأجابه السلطان بعدة جمل. واستغرق هذا الأمرُ لحظات قصيرة. تلك اللحظات الزمنية القصيرة التي استغرقها هذا الأمر قلبت كل مخططات الإرهابيين الأرمن رأساً على عقب، لأنه بسبب هذا التأخير الذي استغرق ثواني على غير المعتاد، وبينما كان السلطان ينهي حديثه ويبدأ في وضعِ أولى خطواته على سلم الجامع، انفجرت العربة المفخخة بصوت مذهل، وتحولت المنطقة في لحظة إلى ساحة حرب غارقة في دخان من الغبار، وكأن القيامة قد قامت، ونهاية العالم قد حلت. وانتثرت الشظايا المعدنية في كل مكان وقُتِل العديد الذين لا حول لهم ولا قوة. خاصة وأن الخيَّالة قد اختلط بعضهم ببعض نتيجة لتدافع خيول الأفواج من الخوف، وعم التوتر جميع الباشاوات والمحافظين فكانوا يتدافعون هنا وهناك. وفي لحظة كانت الجثث تملأ المكان كله، وتحول إلى بحيرة من الدم. تملك الذعر الشديد من الجميع. كان الناس يصرخون ويبكون بلا وعى.

وقف السلطان وسط كل تلك الأحداث المخيفة يتابع الموقف محافظا على هدوئه، لم يتحرك خطوة واحدة لا إلى الأمام ولا إلى الخلف، ثم بلا خوف ولا ارتباك رفع يده، آمرا بصوت عال كل شخص أن يقف في مكانه. في هذه النقطة، كثير من شهود العيان للحادث يتفقون في مذكراتهم على شيء وهو: أن الشخص الوحيد الذي لم يهرب من المكان ذلك اليوم هو السلطان عبد الحميد؛ لم تتغير ملامح وجهه ولو قليلاً على الرغم من تدافع الناس وصراخهم من حوله.

بعد أن هدأ المكان قليلاً، سار السلطان بمشيته الرزينة، وركب عربته نفسها، وتوجه إلى قصر يِلْدِزْ وسط تصفيق الحضور من الشعب والأجانب،

وهناك في القصر أيضا قوبل بهتاف الاستحسان من كبار السفراء لرزانة تصرفاته. وتباحث مع كبار السفراء لمدة ٢٠ دقيقة لكيلا يفسد خطط يومه بأي شكل كان، ثم توجه إلى "الهمايون" ليستمع وليعرف الأحداث بتفاصيلها. أرسل كل رؤساء الدول برقيات تهنئة بالسلامة لهذا الحاكم العثماني البطل.

بعد الحادث تم القبض على مجموعة الإرهابيين. وكان من بينهم البلجيكي "جوريس" مخططُ عملية الاغتيال. الأهم من هذا أن السلطان عفا عن "جوريس" المحكوم عليه بالإعدام، عاقدا معه اتفاقاً، مقابل إعطائه معلومات سرية خاصة بقضايا الفوضى والإرهاب الذي في أوروبا. كما أنه أحسن إليه بأن أهداه ٥٠٠ قطعة ذهبية. وتم تجنيد "جوريس" -الذي كان من قبلُ عدوا يخطط بنفسه لعملية الاغتيال- ليكون رجلاً هاماً يعمل على تنفيذ مهام سرية للسلطان. وعلمنا فيما بعد أن جوريس -طبقا لما ذكره الباشكاتب تحسين باشا- كان يرسل تقارير هامة جدا عن أوروبا للسلطان عبد الحميد، وأن السلطان في ظل تلك المعلومات التي تحملها التقارير نجح في إفساد العديد من خطط أعدائه. علاوة على أن ضمه "جوريس" إلى حمايته واستفادته منه أظهر ما يتسم به السلطان من بُعد نظر، وكشف مرة أخرى أمام الجميع ما اشتهر به من قدرة على فهم وحسن استخدام الناس. لأنه كان قائداً يعرف جيداً كيف يتعامل مع الثعابين، وكيف يتقي شرورهم. ولكن المحزن أن بعض الاتحاديين مثل توفيق فكرت، وأحمد رفيق قد هتفوا بتعصب لخطط الفوضويين الأرمن الظالمة بتلك الأشعار التي كتبوها. وعندما فشلوا في النهاية تركوا وصمة عار سوداء قوية في تاريخنا المجيد.

يشرح الأميرال السير هنري وودز، أحد الرجال المهمين لتلك الفترة،

في مذكراته التي سبقت الإشارة إليها، يشرح حادثة القنبلة فيقول:

"لم أكن بعيدا جداً عن السلطان. وأثناء ذلك سمعت دوياً لا يمكن أن ينتج إلا عن مدفع. وارتجت الأرض من تحت قدمي وكأنها تريد الإطاحة بي. أدهشتني رباطة جأش السلطان. وفجأة رأيت أناسا تنزف وجوههم وأيديهم، يَخرجون جريا من جامع يِلْدِزْ. ظننت أنه تم إلقاء قنبلة يدوية على السلطان. ولكنني تابعت بنظري المكان الذي انصبت عليه عيون السلطان، كان ساحةَ الجامع، عندئذ ارتعشتُ من الذهول. كانت ساحة المسجد أشبه بميدان حرب ضرب بنيران مدفعية. خيول مقتولة، قطع من الخشب متناثرة في كل مكان، وعربات ممزقة قطعا قطعاً، وسائقون مساكين ملقَون على الأرض جثثاً... وعلى شمالي على بعد حوالي مترين، رأيت جاويشاً بحرياً تركياً برتبة كبيرة وهو يحاول أن يغطي جثة أحد الضباط الذي مات لإصابته بشظية. بمجرد أن سُمع دوي الانفجار، جاءت فرقة من الخيالة ذات السيوف المشهرة وأحاطت بمكان الانفجار. إلا أن ضابط الفرقة حينما سمع أمر السلطان عبد الحميد بالانسحاب تراجع هو وفرقته. بعد قليل أدرك الجميع أن السلطان حي معافى. فارتجت المنطقة بهتافات الجنود والمدنيين، المواطنين والأجانب: "عاش سلطاننا". ولدقيقة أو اثنتين وجه السلطان أوامره إلى عدد من كبار الضباط الموجودين بجانبه. ثم ركب عربته برزانته المعتادة، وقادها بنفسه كعادته. كانت تعبيرات وجهه هادئة. بهذه الهيئة خرج من الجامع وذهب إلى القصر.

كان من بين المشاهدين سيدة وقد جُرحت أيضا. كما جُرح عدد من مُشاهِدي الحادث نتيجة لتناثر عظام الخيول الموجودة في مكان الانفجار بشدة في المنطقة. وسقطت فخذ أحد الخيول أمام المكان المخصص

للسفراء. كما تحطم زجاج برج الساعة (يلدز). وحدثت فجوات كبيرة أعلى الجامع، وكسر زجاج نوافذه وسقط على الأرض، وجرح الزجاج المتساقط كثيرا من رواد الجامع. وتعرض الجامع من الداخل لتلف كبير. كانت الساعة الكبيرة جداً الواقعة أمام المسجد بمثابة جاجز واق يحمي الواقفين خلفها. كانت الساعة على برج صغير من الرخام. وأصبح هذا البرج بمثابة حام للسلطان أيضا. على الرغم من أن الإرهابيين كانوا يخططون لانهيار هذه الساعة القائمة على قاعدة من الرخام. ولكن حدث العكس، فالبرج حمى السلطان من الشظايا المتطايرة في الهواء.

مات اثنان من حراس الأمراء، ولكن الأمراء أنفسهم لم يصبهم شيء. لقد أنقذ عبدَ الحميد حديثُه مع شيخ الإسلام."[1]

١٠. التطورات التي حدثت في الولايات العربية

إن النزاعات بين المسلمين وغير المسلمين، والصعوبات الناجمة عن إدارة أراض مختلفة الجنسيات كلبنان وسوريا تمخضت عن تمتع لبنان بحكم ذاتي تحت إدارة وال مسيحي عام ١٨٦١م، ولم يُسمح لتدخلٍ دولي مباشر. كانت بنية تلك المنطقة تصعّب الأمور على الإدارة العثمانية حيث إنها مؤلفة من عناصر مختلفة، بالإضافة إلى أن وجود الأماكن والمقامات المقدسة فيها كان يجعلها بؤرة اهتمام القوى الأجنبية. وتَسبب حشد الجنود من تلك المنطقة على الجبهة استعداداً للحرب العثمانية-الروسية (١٨٧٧-١٨٧٨م) في ظهور تيار ضد الدولة العثمانية. كما أن التوجه إلى الأراضي المقدسة مثل فلسطين[2] تحت الشعار المنتشر في أوروبا بمسمى "الحملة الصليبية السلمية"، والحركاتِ الاستعمارية، بالإضافة إلى

---

1 Woods; a.g.e., s. 161-163

2 Beydilli; المرجع السابق a.g.e., s. 116

النشاط الصهيوني الذي يزداد يوما بعد يوم قوة وانتشاراً في عهد السلطان عبد الحميد، وفَتْح أبواب المنطقة لرأس المال الأجنبي.. كل هذه الأمور أصبحت وسيلة لتطوير سياسة نفوذ للدول الكبرى في المنطقة.(١)

أما وقوع مصر تحت الحكم الإنجليزي فقد قوّى شوكة الأعمال التي تُضعف السيطرة العثمانية في شبه الجزيرة العربية. فقد بدأ الذين يعارضون الإدارة العثمانية والتصورَ الديني الذي تمثله منذ ثوراتهم الأولى يتمركزون في الأراضي العربية، وخاصة في إقليم "نجد"، ويفرضون أنفسهم مشعرين بصوتهم وقوتهم، ومتخطين كل هزيمة وصد في أول فرصة، حيث اتجهت القبائل العربية العديدة، وشيوخها في المنطقة، للتطلع إلى الانفصال تحت تأثير السياسة البريطانية خاصة في عهد السلطان عبد الحميد".(٢)

وأصبحت الحجاز التي انضمت للحكم العثماني مرة أخرى -بعد أن كانت تحت سيطرة "محمد علي" والي مصر عام ١٨٤٠م- تدار بواسطة أشراف مكة، على الرغم من الولاة العثمانيين، لأنهم كانوا أصحاب المقدرة والكلمة المسموعة عامة.(٣) إلا أنه زادت رقابة المركز واهتمامه بالمنطقة في نهايات القرن بفضل النقل البحري والسكك الحديدية (كخط سكة حديد الحجاز التي امتد حتى المدينة المنورة عام ١٩٠٨م)، وقوافل الحج الكبيرة التي تحمل كل مسلمي العالم بنسب كبيرة والتي يزداد عددها بدرجة لا يمكن قياسها بالعصور القديمة. وبذلك اشتدت قوة الدعاية لـ"سياسة الوحدة الإسلامية" بشكل يفوق التصور وقوةُ ارتباط المسلمين بالسلطان.

---

1 Mim Kemal Öke; Abdülhamid, Siyonistler ve Filistin Meselesi, Istanbul 1982, s. 47

2 Öke; a.g.e., s. 66

3 Ismail Hakkı Uzunçarşılı; Mekke-i Mükerreme Emirleri, Ankara 1972

من مظاهر هذه السياسة أيضا تلك الأهمية الكبيرة التي حظيت بها الخدمات الصحية، من إنشاء الحجر الصحي[1] والرغبة في التصدي للأمراض المستعصية والأوبئة التي تظهر في موسم الحج (كوباء الكوليرا ١٨٦٥م، و١٨٩٣م). وأصبح بقاء المنطقة تحت الحكم العثماني جزءا من المضمون "الإسلامي" لا يمكن فصله عن سياسة "الوحدة الإسلامية". وقد أثارت هذه التطبيقات المتعلقة "بالوحدة أو السياسة الإسلامية" حفيظة السياسة الإنجليزية ضد السلطان فأصبحت إنجلترا أحد العناصر الهامة التي تحرض وتشجع على انفصال البلاد العربية. فاندلعت من جديد ثورات في اليمن عام ١٨٩٥م على الرغم من إخمادها فيما سبق بالتحرك العسكري الناجح تحت قيادة أحمد فيضي باشا والي الحجاز عام ١٨٨٩م والذي تمخض عن السيطرة على صنعاء. أما التمرد الذي قضى عليه حسين حلمي باشا والي اليمن بعد عامين من النضال، فقد عاد وانفجر مجدداً عام ١٩٠٢م، وأصبح قنبلة تمردٍ كبيرة ممثلة في شخص "الإمام يحيى". استمرت تلك الثورات لأعوام عديدة حتى سقطت الإمبراطورية، وكانت مصحوبة بنضال صعب ترك أثاراً عميقة في وجدان الرأي العام وأودى بحياة الآلاف من الجنود العثمانيين.[2]

١١. علي سُعاوي وواقعة جيراغان

كان "علي سعاوي" أحد رجال الفكر العثماني في الفترة الأخيرة، وأحد أعضاء جمعية "العثمانيون الجدد"، كان قد تقلد موقع المستشار

1 Gülden Sarıyıldız; Hicaz Karantina Teşkilâtı (1865-1914), IÜEFTBE Basılmamış Doktora Tezi,Istanbul 1989

2 Ihsan Süreyya Sırma; Osmanlı Devleti'nin Yıkılışında Yemen Isyanları, Konya, tz.

الحاص للسلطان عبد الحميد في بدايات حكمه. وفيما بعد ولّاه السلطان إدارة "غلَطَة سَراي" بإسطنبول.

ولارتكابه بعض التصرفات المشبوهة عزله السلطان من وظيفته. وكان هذا يعني أنه قد سقط من عين السلطان. لذا أصبح من بعد فصله عدواً لدوداً للسلطان.

أدرك علي سعاوي بما لا يدع مجالاً للشك أنه لن يستطيع أن ينال منزلة أعلى إذا ظل السلطان عبد الحميد على العرش. وعليه قرر تحقيق أهدافه الشخصية من خلال مقابلته للسلطان "مراد الرابع" الذي نُحي من على العرش من قبل، محاوِلاً أن يعليه العرش من جديد كملاذ أخير لتدارك الوضع. بهذه النية حاول علي سعاوي أن يطيح بالسلطان عبد الحميد، وأن يجعل السلطان مراد الرابع سلطاناً للدولة العثمانية من جديد.

كان سيتم تهريب مراد الرابع من قصر "جيراغان" ونقله إلى "أوداسا"، وكان سيتم هناك الحصول على حق توليه عرش الدولة العثمانية. الجانب الأخر لهذه المسألة هو مساعدة روسيا لعلي سعاوي في هذه الخطة. أصر علي سعاوي في ٢٠ مايو ١٨٧٨م على تأسيس "جمعية الدفاع عن مسلمي روملي" من أجل الدفاع عن ضحايا الحرب العثمانية-الروسية (حرب ٩٣). ولم تكن هذه الجمعية إلا مجرد سِتار، حيث إن نيته الحقيقية هي استغلال الناس المجتمعين تحت سقف الجمعية لتحقيق الاحتلال المخطط له. وأخيرا داهم ذات ليلة قصرَ جيراغان مع ٥٠٠ مهاجر. وأثناء تنفيذه لعملية التهريب وبعد أن وصل إلى غرفة مراد الرابع، علم حراس "بشيكتاش" بالأمر فهرولوا في التو إلى داخل القصر، فهوى أحد رجال الحرس يدعى حسن باشا بالعصا التي كانت في يده على رأس علي

سعاوي فطرحه أرضا. فقُتل علي سعاوي في هذا الاشتباك بينما هرب المتمردون الآخرون.

كان لحادثة علي سعاوي تأثير على السلطان، حيث جعلته فيما بعد يعيش حياة أكثر حساسية وأكثر دقة وشكّاً. وقرر إنشاء هيئة بوليس سري، ووحدة مخابرات قوية مرتبطة بنظام مركزي، لأول مرة في العالم، بهدف رصدِ حركات الاحتلال ومتابعتها عن قرب، ومراقبة التيارات العنصرية والانقسام التي في دولته، ومن أجل وضع حد لمؤثرات الدول الإمبريالية، والحد من الأنشطة الخبيثة المنتشرة في دولته. وهكذا أصبح عبد الحميد يعرف قبل كل أحدٍ ما حدث وما يحدث في بلاده بعد أن أسس المخابرات. ينقل الجاسوس الإنجليزي "وامْبيري" (Vambery) ما قاله السلطان عبد الحميد في هذا الأمر: "هل يمكن أن نتصور وجود حكومة أو دولة أو حتى حاكم دولة دون وجود جهاز للمخابرات؟ فلا ينبغي لشخص متربع على القمة أن يغفل عما حدث وما يحدث من حوله. تأملوا المصير الدموي لعمي عبد العزيز. ألا يجب أن يكون هذا درساً وعبرة لي؟ أنا أيضا عثرت على التقارير السرية. فمثلاً يا عزيزي "وامبيري" (Vambery)، علمت من جواسيسي أنكم (الإنجليز) أقمتم علاقة بخصومي الألداء قبل مدة قصيرة".[١]

لقد أرجع السلطان عبد الحميد سبب خلع عمه عبد العزيز السلطان الوقور، وأخيه مراد الرابع طيب القلب إلى عدم وجود جهاز مخابرات قوي؛ فالسلطان لم يكن لديه علم عن المؤامرات الموجهة ضده وعن خلعه مع أن القصر كان محاصراً بالجنود والأسطول. علم بالأمر فقط

---

1 Kocabaş; a.g.e., s. 237

حينما قرع حسين عوني باشا باب غرفة النوم لاعتقاله. فهذه الأحداث هي التي فتحت طريقاً أدى إلى تأسيس جهاز مخابرات سري.

أثناء ذلك حاول الحاسدون تعطيل جهاز المخابرات السري القوي الذي أسسه عبد الحميد، متهِمين إياه بالخوف وتوهم الشر، إلا إن السلطان يعبر عن أفكاره فيما يخص هيئة المخابرات السرية التي أسسها فيقول:

"هذا هو العرف في الدولة العثمانية (آل عثمان)؛ فالسلطان يحكم الدولة بناء على ما جمعه من أخبار من الدراويش وشيوخِ التكايا التي تملأ أركان الدولة الأربعة من جهة، ومن جهة أخرى كان يعرف شكاوى رعيته وأفكارهم عن طريق الحكومة من خلال القضاة والولاة أنفسهم. لقد وسَّع جدي السلطان محمود (الثاني) دائرة المخابرات ضاماً إليها الدراويش الجوالين. كان هذا هو الحال عندما اعتليت العرش واستمر الحال على ما هو عليه.

أخبرني موروس باشا سفير لوندرا (لندن) ذات يوم بأن حسين عوني باشا الصدر الأعظم سابقا ورئيس العسكر أخذ النقود من الإنجليز. تُرى إذا كان الصدر الأعظم الذي يحكم الدولة نيابة عن السلطان يغدر بدولته فإن معلومات المخابرات التي تبلغ القصر عن طريقه ستكون بهذا المستوى.! شعرتُ بالقلق وأصبحت متأثرا جدا.

في تلك الأيام جاء صهري محمود باشا (زوج أخت السلطان) حاملاً إليّ أخبار بعض من "الجون تُرك" (الأتراك الجدد). كانت الأخبار التي يحملها هامة. سألته: كيف عرفها؟ فعرفت أنه قد أسس هيئة مخابرات خاصة، فحصل على أقرباء بعض الأشخاص بالمال. وكان هؤلاء الأشخاص ينقلون له ما يرون وما يسمعون، وهو يقوم بتقويم هذه

المعلومات. ولكن لا يصح لرجل دولة أن يؤسس هيئة مخابرات منفصلة وسرية داخل الدولة، حتى ولو كان ذلك زوج أختي. فأشرت إليه بالكف عن هذه الأمور وتحويل أمر هذه الهيئة إليّ. أصبحت هيئة المخابرات تابعة لي، وحصلت منها على الكثير من المعلومات. وفيما بعد، أسستُ هيئة مخابرات مستقلة وتابعة لي أنا.

لم تكن الدولة لتنعم بالأمان إذا استطاعت الدول الأجنبية أن يوصلوا الرجالَ الذين سيخدمون طموحاتها إلى درجة وزير و"صدر أعظم". ولهذا قررتُ إنشاء هيئة مخابرات ترتبط بي مباشرة، وهذا كل ما في الأمر مما يعيرني به خصومي من التجسس على الناس.

إنني أعرف جيدا أن في هذه التقارير ما هو كذب وافتراء إلى جانب ما هو صحيح وصدق. ولم أصدق أي تقرير قط ولم أتحرك في ضوءه قبل أن أتحقق من صحته ودقته.

كان جدي العزيز سليم خان (سليم الثالث) يصرخ قائلاً: "يد الأجانب تخالج صدري، أرجوكم، لابد لنا من إرسال سفراء إلى الدول الأجانب، ولابد أن نسعى لمعرفة ما ينوون عمله قبل إقدامهم عليه". إنني أشعر بتلك الأيادي الأجنبية تضغط على رئتي؛ لقد اشتروا وزرائي والصدر الأعظم واستغلوهم ضد بلدي. هل أستطيع أن أعلم كيف حدث هذا، وماذا يفعل هؤلاء الناس الذين صرفتُ عليهم من خزينة الدولة، وعلام يستعدون؟

أجل، أنا مَن أسس نظام التقارير السرية، وأنا من أداره. ولكن لا لأتجسس على المواطنين الشرفاء، وإنما لرصد ومعرفة الذين يخونون دولتي على الرغم من أن رواتبهم من الخزينة وأن حناجرهم مملوءة بخير الدولة العثمانية... وذلك من بعد ما رأيت تحصيل الصدور العظام

للأموال من الدول الأجنبية مقابل تدمير دولتهم أنفسهم، وتنظيم الاغتيال لسلطانهم أنفسهم".[١]

ولقد تم تصنيف وجمع كل المعلومات التي تم الحصول عليها بواسطة هيئة المخابرات ووضعت تحت تصرف عبد الحميد الثاني في قصر يِلْدِزْ.[٢]

١٢. خطط اليهود للحصول على وطن قومي

مسألة العلاقات مع اليهود على مدار تاريخ الدولة العثمانية هي مسألة يجب تناولها تناولاً شاملاً مع ملاحظة ما تحمله من أسرار عميقة، ومفهوم مختلف عن بقية العلاقات الأخرى. ولكننا هنا سوف نتعرض لهذه العلاقات من واقع فترة السلطان عبد الحميد.

في عام ١٨٩٨م تم عقد المؤتمر الأول لصهيونيي العالم بعد أن جاء ممثلون لكل يهود العالم إلى مدينة "باسيل" (Basel) بسويسرا. وفي نهاية المؤتمر تم اتخاذ بعض القرارات عُرِفت بـ"برنامج باسيل". وكخطوة أولى نحو تنفيذ هذه القرارات تم تعيين الصحفي "هيرتزل" -الذي كان رئيساً لحركة الصهيونية العالمية[٣]- رئيساً للجنة التنفيذية، تلاها الاتفاق على قرار بإنشاء "وطن قومي لليهود" في فلسطين.

---

1 Bozdağ; a.g.e., s. 80-81

٢ ولقد صنفت هذه الوثائق في إسطنبول، بأرشيف رئاسة الوزراء تحت اسم "Yıldız Tasnifi" (YEE)

٣ الماسونية : هي أيدلوجية يهودية انتشرت على نطاق واسع بين اليهود عن طريق التنظيم الذي قام به "تيودور هيرزل"، وتقوم هذه الأيدلوجية على عقيدة أن اليهود هم أسياد العالم، ويجب على المجتمعات الأخرى أن تقوم بخدمتهم، وهي تهدف للسيطرة على العالم عن طريق تجميع كل يهود العالم الذين تشتتوا لقرون في كل البلاد تحت مظلة دولة قوية على أرض واحدة يقال لها أرض الميعاد.
(Ö. Demir; Sosyal Bilimler Sözlüğü, Vadi Yayınları, Ankara ١٩٩٣, s. ٢٠٤)

كانت الأراضي الفلسطينية آنذاك تابعة لحدود الدولة العثمانية. فأصبح الهدف هو الدولة العثمانية. ولهذا السبب راجع "هيرزل" السلطان عبد الحميد عدة مرات، فاقترح عليه أن يسمح لليهود بإقامة "أرض الميعاد" في فلسطين، مقابل دفع اليهود ديون الدولة العثمانية -التي ازدادت بحجم كبير- إلى الدول الغربية، وتصديهم لإرهاب الأرمن، و تهيئة جو سياسي إيجابي لصالح الدولة العثمانية في أوروبا. كان رد السلطان على هيرزل معبرا وباعثاً على التأمل. حيث قال: "إنني لن أبيع شبراً واحداً من هذه الأراضي، فهذا الوطن ليس ملكي وإنما هو ملك لأمتي. إن أجدادي أراقوا دماءهم مقابل الحصول عليه وورووه بها. لا أملك أن أفرط في أي جزء منه. وكما رأيتم فدم شهدائنا هو ثمن هذه الأرض. لو أنكم تستطيعون أن تدفعوا نفس الثمن فَتفضلوا وخذوها..." لذا سعى اليهود فيما بعد لإنزاله من على العرش، بالاتفاق مع إنجلترا في الخارج وجمعية "الجُون ترك" (تركيا الفتاة) داخل الدولة العثمانية لتحقيق الأهداف الصهيونية التي فشلوا في تحقيقها لرفضه إعطائهم الأرض. (سيحقق اليهود أهدافهم عام ١٩٤٨م بفضل مساعدة إنجلترا لهم، وسيقومون فيما بعد بإقامة دولة إسرائيل في الأراضي الفلسطينية).

نظرة خاطفة

بتأمل الأحداث التي تم شرحها حتى الآن نستطيع أن نرى بوضوح سياسة الدولة في عهد السلطان عبد الحميد كالآتي:

إن الخطوط الرئيسية للأحداث التي تعرضنا لها منذ قليل، من الحرب مع الجبل الأسود والصرب عام ١٨٧٦م، والحرب الروسية-العثمانية ١٨٧٧-١٨٧٨م، واحتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١م، واحتلال إنجلترا

لمصر ١٨٨٢م، كل تلك الأحداث كشفت عن ضرورة مبادرة الدولة العثمانية إلى التغييرات الجذرية في سياسة الدولة داخليا وخارجيا على حد سواء. لأن الدول الأوروبية التي كانت ترغب في استمرار وجود الدولة العثمانية غيرت رغباتها حينما رأت أن مصالحها ليست في استمرارها، فكانوا يرغبون في تدميرها أولا ثم تقسيمها فيما بينهم. لذا ظهرت حاجة الدولة العثمانية من جديد إلى سياسة التحرك والحيوية حتى يستمر وجودها. وكان عليها أن تتبع سياسة حماية وجودها مع تنمية قوتها بأساليب متعددة، وعدم الاطمئنان إلى مظاهر الود في العلاقات الدولية. فخروج البلقان عن حكم العثمانيين في الفترة ١٨٧٦-١٨٧٨م لم يغير التوازن بين عدد المسلمين وغير المسلمين في المجتمع العثماني لصالح المسلمين فحسب، بل إن المسلمين الذين اضطروا للهروب من أوطانهم المحتلة تاركين كل شيء ورائهم قد أثروا كثيراً على مركز الدولة التي التجؤوا إليها. فأخذ المجتمع العثماني موقفا سلبيا ضد المسيحيين -الذين كانوا سببا في تردي حال إخوانهم من المسلمين- ورَسَخ في الأذهان فكرةُ وجوب التحرك الجماعي والاتحاد ضد العالم المسيحي الذي هاجمهم لفترة طويلة.

ومن ناحية أخرى -كما أشرنا أعلاه- فإن أعوام ١٨٧٠م كانت أعواماً قام فيها العالم الإسلامي -الذي كان يتعرض لشتى الاستعمارات والاحتلالات- بمحاولة أخيرة للحصول على مساعدة الدولة العثمانية وكان يراجعها في هذا الموضوع. خاصة وأن الدول المسلمة الصغيرة التي في آسيا الوسطى وجزر جنوب شرق آسيا كانوا يطلبون مساعدة السلطان العثماني باعتباره الخليفة، ويرونه الملاذ الوحيد لحماية أنفسهم ودينهم.

وحسب ما يتضح من وثائق الدولة الرسمية وصحفِ تلك الفترة لم يكن هؤلاء الناس يريدون الدعم العسكري، بل كل ما كانوا يريدونه هو الوثيقة الرسمية التي توضح كونهم رعايا للدولة العثمانية والخليفة المسلم، ظناً منهم أن هذا الإعلان الرسمي عن ارتباطهم بالدولة العثمانية سيحميهم من أي اعتداء. إن مسلمي العالم كانوا ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها الدولة الوحيدة المستقلة في العالم الإسلامي. وكانت الدول الاستعمارية أيضا تدرك مدى الارتباط الذي يكنه المسلمون للدولة العثمانية. ولكن تحويل الدولة لإمكانياتها صوب الولايات العثمانية التي يعيش فيها غير المسلمين بموجب فرمان الإصلاحات -الذي صدر عام ١٨٥٦م والذي تم إعلانه تحت ضغط فرنسا وإنجلترا الذين ساعدا الدولة العثمانية في حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦م- أثار استياءً بين المسلمين، لأنه جعل المسلمين في أوطانهم مواطنين من الدرجة الثانية. وقد انعكس حالهم على تقارير قناصل وسفراء الدول الأجنبية. لم يمكن تغيير هذه الحالة التي قام مثقفونا بالإعلان عنها للشعب وانتقدوها عبر الوسائل الإعلامية إلا بخروج بلاد البلقان الواحدة تلو الأخرى من اليد، وازديادِ المسلمين بعدد كاسح في عموم الدولة. في الواقع فإن الأحداث التي وقعت ما بين ١٨٧٥-١٨٧٨م قد غيرت التوازن البشري في الدولة العثمانية؛ فعدد المسلمين كان يشكل نسبة ٥٩٪ من المجتمع عام ١٨٢٠م، ومع عام ١٨٩٠م وصلت النسبة إلى ٧٥٪.

أما التطور الهام خلال تلك الفترة، فهي احتلال إنجلترا لمصر، واحتلال فرنسا لتونس.

كان لابد من الرجوع لآراء عبد الحميد الثاني من أجل إرساء السياسات

الجديدة الموضوعة إزاء هذه الحالة. إننا نلاحظ أنه المرجع الوحيد الذي يستطيع أن يقرر ويقيّم في السياسة الخارجية والداخلية على حد سواء، بفضل نظام المخابرات الخاصة. وكما هو معلوم فإن تقييم التقارير المقدمة من قِبَل وحدات المخابرات للدولة، وتحديدَ القرارات السياسية الخارجية وفقها لايتم إلا باتفاق يشترك فيه جميع عناصر الوزارة الخارجية، وخبراء الوزارة المعنية. أما السلطان عبد الحميد الثاني فإنه كان يقوم بتقويم كل المعلومات بنفسه ثم يجعل الحكومة تقوم بتنفيذها.[1]

و. الصدور العظام (رؤساء الوزراء) في فترة حكمه

إن الكوارث الكبرى تعقبها إدارات فردية. وهذا ما حصل بعد حرب ٩٣ (١٨٧٧-١٨٧٨ الحرب العثمانية-الروسية)، فانتقلت إدارة الدولة من الباب العالي الحكومة) إلى قصر يلدز. فالصدور العظام الذين صادفت فترة حكمهم "مرحلة إدارته الفردية" هم كما يلي:

١. محمد أسعد أفندي: ٤ يونيو - ٤ ديسمبر ١٨٧٨م = ٦ أشهر.

٢. خير الدين باشا التونسي: ٤ ديسمبر ١٨٧٨م: ٢٩ يوليو ١٨٧٩م = ٧ أشهر و٢٦ يوماً

٣. أحمد عريفي باشا: ٢٩ يوليو- ١٨ أكتوبر ١٨٧٩م = شهران و٢٠ يوماً

٤. كوجوك محمد سعيد باشا: ١٨ أكتوبر ١٨٧٩م- ٩ يونيو ١٨٨٠م =٧ أشهر و٢٠ يوماً

٥. جاناني زاده محمد قدري: ٩ يونيو- ١٢ سبتمبر ١٨٨٠ = ٣ أشهر و٣ أيام.

---

1 Erarslan; a.g.m., s. 263-266

٦. كوجوك محمد سعيد باشا (الفترة ٢): ١٢ سبتمبر ١٨٨٠م - ٢ مايو ١٨٨٢م = سنة و٧ أشهر و٢٠ يوماً

٧. جَرْمِيان أوغلو أ. نورالدين باشا: ٢ مايو- ١١يوليو ١٨٨٢= شهران و ١٠ أيام.

٨. كوجوك محمد سعيد باشا (الفترة ٣): ١١ يوليو- ١ ديسمبر ١٨٨٢م = ٤ أشهر ٢١ يوماً

٩. أحمد وفيق باشا: ١ ديسمبر - ٣ ديسمبر ١٨٨٢ = يومان

١٠. كوجوك محمد سعيد باشا (الفترة ٤): ٣ ديسمبر ١٨٨٢ — ٢٥ سبتمبر ١٨٨٥= سنتان وشهر و٢٣ يوماً.

١١. محمد كامل باشا القبرصي: ٢٥ سبتمبر ١٨٨٥-٤ سبتمبر ١٨٩١م = ٥سنوات و١١شهرا و٩ أيام.

١٢. قابا آغَاجْلِي زاده محمد جواد: ٤ سبتمبر١٨٩١م — ٨ يونيه ١٨٩٥= ٣ سنوات و٩ أشهر وأربعة أيام.

١٣. كوجوك محمد سعيد باشا (الفترة ٥): ٨ يونيو- ١ أكتوبر ١٨٩٥م = ٣ أشهر ٢٣ يوماً.

٤١. محمد كامل باشا القبرصي (الفترة٢): ١ أكتوبر- ٧ نوفمبر ١٨٩٥م = شهر و٦ أيام.

١٥. خليل رفعت باشا: ٧ نوفمبر ١٨٩٥م — ٩ نوفمبر ١٩٠١ = ٦ سنوات ويومان.

١٦. كوجوك محمد سعيد باشا (الفترة٦): ٩ نوفمبر ١٩٠١- ١٤ يناير ١٩٠٣= سنة وشهران و٥ أيام.

١٧. آوْلُونْيَالِي محمد فريد باشا: ٤ يناير ١٩٠٣-٢٢ يوليو ١٩٠٨= ٥سنوات و٦ أشهر و٩ أيام.

١٨. كوجوك محمد سعيد باشا (الفترة ٧): ٢٢ يوليو- ٤ أغسطس ١٩٠٨= ١٣ يوماً.[1]

ز. شيوخ الإسلام وبعض أهم رجال الدولة في عهده:

١. إمامِ سلطاني حافظ حسن خيرالله أفندي: ١ مارس ١٨٧٦م- ٢٦ يوليو ١٨٧٧ = سنة وشهران و١٥ يوماً.

٢. حاجي قره خليل أفندي: ٦ يوليو ١٨٧٧- ١٨ أبريل ١٨٧٨م = ٨ أشهر ٢٣ يوماً

٣. أحمد مختار أفندي: ٨ أبريل ١٨٧٨- ٤ ديسمبر ١٨٧٨ = ٧ أشهر ١٦ يوماً

٤. عرياني زاده أحمد أسعد أفندي: ٤ ديسمبر ١٨٧٨م- ١٧ يناير ١٨٨٩ = ١٠ سنوات وشهر واحد و١٤ يوما

٥. بُوذْرُومْلِي حاجي عمر لطفي أفندي: ١٧ يناير ١٨٨٩- ٤ سبتمبر ١٨٩١= سنتان و٧ أشهر و١٨يوما

٦. محمد جمال الدين أفندي: ٤ أيلول ١٨٩١م- ١٤ فبراير ١٩٠٩= ١٧سنة و٥ أشهر و١٢ يوما. (أحد شيخَيِ الإسلام الذين عملا لأطول فترة في التاريخ العثماني)

٧. محمد زياد الدين أفندي: ١٤فبراير ١٩٠٩م - ٥ مايو ١٩٠٩= شهران و١٨يوم.

1 Öztuna; a.g.e., s. 170

وتعد الأسماء التالية من الشخصيات الهامة المرموقة في تلك الفترة:

- البطل العسكري المشير غازي عثمان باشا.
- المؤرخ والمحامي ورجل الدولة والفكر أحمد جودت باشا.
- الأديبان والشاعران والمفكران ضيا باشا ونامق كمال.
- الصدر الأعظم الأديب، والعالم، والدبلوماسي أحمد وَفيق باشا.
- عالم الآثار، والملحن والرسام عثمان حمدي بك.
- قاضي العسكر والخطاط والملحن والعازف الفرتيوز (Virtuose) مصطفي عزت أفندي
- وطنبوري جميل بك كعازف وملحن أشعار الساز.
- ومن الملحنين حاجي عارف بك، وشوقي بك، ورحمي بك، طنبوري عثمان بك، وزكائي داده، وطنبوري علي أفندي.
- ومن الشعراء الشاعر عوني بك من يني شهر، عبد الحق حامد طارْخان، توفيق فكرت، محمد عاكف أرصوي.
- جناب شهاب الدين شاعراً وأديباً.[1]

حـ . نهايات عهد السلطان عبد الحميد خان الثاني

عند النظر إلى بنية الدولة العثمانية في أواخر عهدها، والأزمات التي مرت بها، وخاصة الضغوط التي كانت الدول الأجنبية الكبيرة تمارسها عليها، فإن التوقع من إدارة السلطان عبد الحميد أن تمنع تماماً انهيار الدولة أمر مخالف لمجرى التاريخ وغير منصف. وذلك لأن التأثير الذي يحدثه الأشخاص ورجال الدولة في مرحلة انحلال الدولة وانهيارها

1 Öztuna; a.g.e., s. 250-251

لا يمكن أن يلعب أي دور سوى إبطاء المرحلة أو إسراعها. وفضلاً عن أن الدولة آلت إلى حالة يصعب إصلاحها من حيث البنية الداخلية، وتعرَّض جهازُ الإدارة لفساد داخلي أدى بها إلى حافة السقوط والانهدام والخراب، وتم تقسيم الدولة بالفعل، وفَقدت خلال السنوات الماضية العديدَ من أراضيها.

إن أنشطة جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تمثل المعارضة المنظمة ضد إدارة عبد الحميد الثاني، وخاصة مع سيطرة الجمعية على الجيش، أنتجت في صيف ١٩٠٨م قرار العودة إلى نظام القانون والدستور باعتباره العلاج لكل الأوضاع السيئة. وعلى الأخص إن تأثيرات أحداث مقدونيا دفعت بالقوات العثمانية المتمركزة في سَلانيك وبالأحرى الضباط المعارضين لنظام عبد الحميد والذين تأثروا بجو "التنوير" و"الليبرالية" الذي كان يملأ المنطقة.. إلى التحرك نحو تحرير الدولة!.[1]

أجبرت التطوراتُ الوخيمة السلطان عبدَ الحميد إلى التحول نحو نظام دستوري وإعلان "المشروطية".[2] وهذه التطورات هي اغتيالات بعض رؤساء البوليس والضباط الموالين للسلطان في مركز قيادة سلانيك، وخروجُ أنور بك ونيازي بك بقواتهما العسكرية إلى الجبل،[3] وتعظيمهم باعتبارهم "الأبطال الذين يحررون الوطن من الاستبداد"،[4] وتمردهم

1 I.Tekeli; S.Ilkin; "Ittihat ve Terakki Hareketinin Oluşumunda Selanik'in Toplumsal Yapısının Belirleyiciliği".Türkiye'nin Toplumsal ve Ekonomik Tarihi (1071-1920), Ankara 1980, (Yayınlayan:O.Okyar – H.Inalcık)

2 Ortaylı; a.g.e., s. 33

3 Şevket Süreyya Aydemir; Makedonya'dan Orta Asya'ya Enver Paşa I-III, Istanbul 1970-1972

4 Meşrutiyetin ilânı sonrasında Enver ve Niyazi Beyler için büyük boyda bastırılıp satılan duvar resimleri altında Türkçe, Rumca ve Ermenice yer alan ibare...

الواضح للإدارة القائمة، ومقتل شمسي باشا المرسل من قبل الإدارة على يد فدائيي الجمعية، وثورة الجنود المتمردين في روملي مثلما حدثت قبل ١٠٠ سنة.. نعم.. إن هذه الحوادث والتطورات أجبرت السلطان عبد الحميد إلى إعلان الدستور.

أعلن السلطان عبد الحميد المشروطية الثانية في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م للحيلولة دون قيام جمعية الاتحاد والترقي بانقلاب عسكري. وأسعد إعلانُ المشروطية الثانية الدولَ الغربية كثيرا. وأخيرا نجح الاتحاديون في الوصول إلى أهدافهم. وعندئذ حان دور الخطة الجديدة، وهي تنحية السلطان عبد الحميد عن العرش.

كانت الحادثة المشؤومة والتي سجلت في التاريخ ك"واقعة ٣١ مارس"، وإن كانت طبقا للتقويم الميلادي وقعت بتاريخ ١٣ أبريل ١٩٠٩م.. كانت بلا شك أحد نقاط التحول الهامة للمعارضة المتصاعدة ضده. في اليوم المذكور، ظهرت حركة بلبلة شديدة في إسطنبول، مع حركة تمرد مصطنعة ومزورة والتي اندلعت بهتافات مثل: "نريد الشريعة، الدين يضيع...". كل تلك الأحداث تم تبليغها ببرقيات إلى سلانيك، فكانت هذه البرقيات تخبرهم بأن "المشروطية سقطت". وعليه خرج من سَلانيك جيش سمي بـ"جيش الحركة" وكان به متطوعون أرمن وبلغار وروم ويهود، خرجوا لقمع التمرد في إسطنبول. وازدادت حركة التمرد حجماً عندما انضم إليها "آوْجي طابورْلري" (طوابير الصيادين) في إسطنبول.

أثار كونُ أغلب أفراد جيش الحركة من عصابات مقدونيا -التي نَهبت وأراقت دم المسلمين لسنوات عديدة- قلقا كبيرا في إسطنبول. وطلب القادة من السلطان عبد الحميد السماحَ لهم بسحق جيش الحركة هذا.

وأصروا قائلين بأنهم يستطيعون أن يقضوا على هذه القوة الهزيلة بقوات الجيش الأول في وقت قصير. وقال السلطان عبد الحميد الثاني بأنه ليس مجرد سلطان، ولكنه كان في نفس الوقت خليفة للمسلمين، وأنه لم يُرق دماً على مدار ثلاثين عاماً، ولم يكن أيضا بعد هذا العمر ليسمح لمسلم بإراقة دم مسلم، وأجاب بأنه متوكل على الحق جل جلاله. وأصدر أوامره إلى ناظم باشا قائد الجيش الأول بعدم مقاومة "جيش الحركة" بتاتاً. لم يكتف السلطان المشهور بوسواس الشك بذلك بل جعل قادة الجيش والباشاوات الأخرين يحلفون على تنفيذ ما أمر به. ثم تَرقَّب تطور الأمور بضمير مستريح.[1] إلا أن القصر لم يستطع مع الأسف أن يكبح هذا التمرد بسبب الأسباب المذكورة.

لم يكن للسلطان عبد الحميد أيّ يد في تمرد ٣١ مارس، بل إنه حينما طُلب منه أن يقضي على التمرد أجاب -كما ذكرنا أعلاه- بأنه لم يكن ليرضى قلبه بأن يطعن الأخُ أخاه، وأنه على استعداد إذا اقتضى الأمر أن يضحي بروحه في هذا الأمر... إلا أنه وعلى الرغم من هذا كله اتُهم بأساليب عدة بأنه هو السبب وراء هذا العصيان.

ملحوظة: اتضح اليوم بشكل قاطع عدم تصديه لهذا العصيان بأي شكل، من بدايته وحتى إخماده، وكأنه لم يكن لديه علم عن واقعة ٣١ مارس. لقد صرح كل من طلعت باشا رئيس الاتحاد والترقي، وأحمد رضا بك رئيس المجلس آنذاك والذي كان يرغب الرجعيون في قتله في أثناء ذلك الحادث، قالا بأن السلطان لم يكن له أدنى صلة بهذا العصيان.

كان الصدر الأعظم "كوجوك سعيد باشا" أيضا يعرف هذا. ولكن

---

1 Öztuna; a.g.e., s. 231

حينما أراد السلطان أن تُحقِّق المحكمةُ في الأمر قال سعيد باشا: "وحينما تثبت براءة السلطان ماذا سيكون حالنا؟". وكان من الأسماء الهامة التي تقول بهذا المؤرخُ والاتحادي أحمد رفيق.[1]

وأخيرا تم القضاء على تمردِ ٣١ مارس بقوة من قِبل "جيش الحركة" تحت قيادة محمود شوكت الذي تمركز في يَشِيلْكُويْ بإسطنبول. وبعد الحدث طلب محمود شوكت باشا من رئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا عَرْضَ وجوب خلع السلطان عبد الحميد على المجلس (البرلمان)، باعتبار أن للسلطان دوراً في التمرد.

جيش الحركة -كما سبق وأن أشرنا- كان أغلبه من الروم واليهود والأرناؤوط، إلا أن قادته من الضباط كانوا أتراكاً. وصرح محمود شوكت باشا في التلغراف الذي أرسَل به إلى قصر يِلْدِزْ أنه لم يكن ينوي انقلاباً ضد السلطان، وإنما كان يخبره بأنها حركة هدفها ترتيب النظام فقط. وأجاب السلطان على التلغراف وأخبر الباشا (الذي كان سابقا من أكثر الجنرالات الذين يثق بهم) بموافقته على قيام الحركة!

والحقيقة أن السلطان عبد الحميد كان قادرا بسهولةٍ على القضاء على جيش الحركة، ففي صلاة الجمعة الأخيرة كان هناك ٨٠ ألف جندي ملحقين بالسلاملِك. وفي احتفال السلاملك الأخير كان الشعب يهتف بصوت ملأ الأرض والسماء حزناً: "عاش سلطاننا!". وبغض النظر عن أراء مؤيدي المشروطية تجاه السلطان إلا أن شعب إسطنبول وخ شوكت اصة الطبقات البسيطة كانت تحب السلطان عبد الحميد كثيراً.[2] إنه كان سلطاناً لا يحب الفوضى والعداء وسفك الدماء.

1 Öztuna; a.g.e., s. 230

2 Woods; a.g.e., s. 165-166

ولكن المؤسف في هذا المقام هو أن سلطاناً يحبه الناس لهذه الدرجة سيخلعه مجلس على التركيبة التالية:

كان النواب في مجلس المشروطية الثانية يتألفون من ١٠٧ من الأتراك، و٤٥ من العرب، و٢٧ من الروم، و٢٢ من الأرناؤوط، و١٠ من الأرمن، و٥ من البلغار، و٤ من الصرب، و٣ من اليهود، و٢ من الأكراد وواحد من الأُولاه وآخر درزي.

وفي نهاية المدولات التي أجريت في المجلس الذي يحوي هذه الشخصيات، قرروا خلع السلطان عبد الحميد وتنحيته عن العرش وكأنه كان السبب الرئيسي في تمرد ٣١ مارس.[1] (النقطة الهامة جداً التي تلفت نظرنا هي أن هذه الفتوى لا يوجد بها اتهام للسلطان بالاستبداد. على حين يستخدم سياسيون من "الجون ترك" كلمة "استبداد").

مع ذلك فمِن بين المجتمعين في المجلس في أياستفانوس والبالغِ عددهم ٢٤٠ نائباً و٣٤ سيناتورا كان هناك العديد من الأشخاص الذين لديهم شك في هذا الأمر. حتى لقد حاول طلعت بك وآخرون أن يقترحوا تنازل السلطان عن العرش، ولكن الاتحادين لم يوافقوا على هذا الرأي وأبوا إلا خلعه.

لقد ذكر تمرد ٣١ مارس على رأس الأسباب التي توجب خلع السلطان عبد الحميد. ولكننا اليوم نرى أن الحقيقة تظهر وبشكل قاطع بأنه اجتهد لكيلا يتسع هذا التمرد أكبر، بعكس الادعاء الذي أشيع والخالي تماما من الصحة.[2] كما ذكروا أيضا وجوب إسقاط صفة الخلافة عنه بحجة أنه أمر في أثناء فترة حكمه بحرق الكتب الدينية. ولكن هذا كذب...

1 Ortaylı; a.g.e., s. 264

2 Akarlı; a.g.m., s. 264

فلقد عُرف عنه اهتمامه الشديد بالعبادات، وتدينُه المعتدل دونما تعصب. وكانوا يدَّعون بأنه أسرف في الإنفاق من خزينة الدولة. وهذا أيضا كذب بحت، لأنه كان حاكماً عُرف عنه الاقتصاد في الإنفاق؛ فلقد اتعظ جيدا من إسراف والده وإسراف عمه. وعلى النحو الذي سيتم عرضه بعد قليل، سنجد أنه عَمِل الكثير من الخير الذي يحتاج لصفحات من أجل كتابة قائمة عنها، حيث كان يصرف من ماله الخاص، كما سدد حصة كبيرة من ديون الدولة الخارجية المتبقية منذ عصر أبيه وعمه.

أشاعوا عنه أنه كان ظالماً، مع أنه كان حاكماً عرف عنه حقنه للدماء، ولم يوقّع حكما بالإعدام إلا على ثلاثة أو أربعة أشخاص. إن كل ظلمه لمن يعارضون النظام ويشيعون الاضطراب والتوتر في المجتمع، كان عبارة عن عقابه لهم بنفيهم من مكان إلى آخر بـ"رواتب عالية جدا" (مثل نامق كمال و مدحت باشا)، وباعتماده على البوليس السري. والحقيقة أن كل ما اتهم به السلطان عبد الحميد من دموية وما إلى ذلك حدثت أضعافها في الفترة التي تلته (في زمن الاتحاد والترقي).[1]

في النهاية حقق أعداء السلطان عبد الحميد غرضهم، ووضعوا النقطة الأخيرة من أجل تنفيذ الخطط التي تفوح دماً. فتم خلع السلطان العجوز من على العرش، وتحكم يد الإرهابيين في مصير الأمة العزيزة والدولة العملاقة. وحان الوقت لتبليغ السلطان بهذا القرار. ولكن طريقة تبليغ القادمين من الاتحاد والترقي للسلطان بالخلع ظلت واحدة من وصمات العار في تاريخ الدولة العثمانية لا يمكن محوها، لأن الاتحاديين قد أخطأوا في هذه المسألة بنحو مفجع، يصفونها هم أنفسهم بـ"خطأ لا يمكن

1 Öztuna; a.g.e., s. 232

مغفرته"، و"وصمة يستحيل محوها"، و"الخطيئة العظيمة". وهذه أسماء الهيئة المنوطة بتبليغه قرار خلعه منهم النائب ومنهم السيناتور وهم:

اليهودي "عمانوئيل قره صو" (نائب سلانيك)

الأرناؤطي أَسعد طوبْتَاني (نائب دراج)

السيناتور الأرمني آرام أفندي.

السيناتور الجورجي عارف حكمت باشا (فريق بحري: نائب أميرال)

فكون الهيئة التي قامت بإبلاغ خليفة المسلمين بقرار خلعه، متشكلا من أربعة أشخاص اثنان منهم من غير المسلمين، يوجب علينا الحديث بكلمات مختصرة عن خلفيات تلك الشخصيات إلى جانب الحديث عن تلك الضربة الموجهة لمئات الملايين من المسلمين.

فأما "عمانوئيل قره صو": فهو شخص خائن بكل معنى الكلمة، فقد كان جاسوساً أخذ مالاً من إيطاليا، ولعب دوراً مشؤوماً ساهم في ابتلاع إيطاليا لليبيا، ثم هرب بعد ذلك إلى إيطاليا. وأما "أسعد طوبتاني" باشا فقد تمرد على الدولة بعد عدة سنوات، فهو رجل حمل السلاح ليسفك عدداً لا يحصى من دماء العثمانيين من أجل انفصال الأرناؤوط. وأما آرام أفندي فمعلوم عنه علاقته بجماعات الثورة الأرمنية، ولقد تم ضمه إلى الهيئة بصفة خاصة من أجل أن يثأر من السلطان. وأما عارف حكمت باشا فهو بحّار أصبحت حياته السياسية مظلمة في الأيام التالية.[1]

إن إرسال هيئة كتلك إلى رئيس دولة مسلمة لهو ضربة ثقيلة موجهة إلى هيبة الدولة. خاصة أن الاتحاديين أنفسهم أدركوا بعد فترة وجيزة حجم هذا الخطأ الكبير، وقالوا: إنهم لم يكن باستطاعتهم أن يتوقعوا ماذا سيحدث

1 Öztuna; a.g.e., s. 233

داخل هذا الجو الثوري، وإنهم تم خداعهم وجرهم إلى داخل اللعبة.

إن السلطان عند تبليغه بالقرار، وبعد أن استمع للهيئة في سكون ووقار جم، أبدى رضا وتوكلاً قائلاً بأن كل تلك الأمور التي حدثت له إنما هي قدر الله عليه. ولكنه حزن لأقصى درجة وحز في نفسه أن تبليغه بهذا القرار جاء من هيئة بعيدة عن الإسلام. إن نتيجة أحداث ٣١ مارس كانت محاكمةَ عدة أشخاص كمجرمين، وصدرت عليهم أحكام بالسجن أوالإعدام. لقد دبرت القوى المختلفة هذا الحدث كنتيجة لصراع الحكم فيما بينهم، مخلفاً وراءه آلاما كبيرة في القلوب، وأسرارا خفية على صفحات التاريخ.

كانت مدة حكم السلطان بعد إعلان المشروطية الثانية عبارة عن ٩ شهور و٥ أيام.. وبعد ذلك أصدر المجلس القرار بخلعه. ثم نُفي السلطان الذي تم إنزاله من على العرش وسلب منه كل صلاحياته وسلطته، بدون السماح له بأخذ أي من متعلقاته، واعتصب منه كل أمواله النقدية، وسنداته وملايين القطع الذهبية التي في البنوك، حتى خزائنه القيمة التي في قصر يِلْدِزْ والتي تركها خلفه، وأُرسل السلطان وعائلته إلى منفى سلانيك بشكل ينم عن الغدر والخيانة. (تم إخراجه ليلة ٢٧ أبريل ووصل إلى سلانيك مساء اليوم التالي). وهناك عاش لمدة ثلاث سنوات ونصف محبوساً تحت رقابة صارمة في قصر آلاتيني المملوك لأحد أثرياء اليهود.

يذكر السلطان الجريح عبد الحميد في مذكراته مشاعرَه التي عاشها عشيةَ يوم إخباره بفتوى خلعه، وطوال سفره إلى سلانيك، وعن سنوات المنفى التي عاشها في سلانيك:

"لا جعل الله سلطانا يرى ذلة الامتنان إلى دولة أجنبية في تاجه وعرشه!"

طوال الطريق في القطار وأنا أبكي، لا أبكي على نفسي بل على الظلام الذي خيم على وطني! ولكن لو أنني كنت أثق بأن من حلوا محلي لديهم بعض الكفاءة لأن يتملكوا السلطة، فوالله وبالله لكنت لأشعر بالسعادة! إن قصر آلاتيني في سَلانيك مُقام على مكان جميل، ويطل على البحر، لو استطعت أن أتغاضى عن أيام السجن والمحنة التي عشتها بداخله، لقلت إنه قصر لطيف جداً. ولكنني دخلت إلى هذا القصر اللطيف في ظلمة أحد الليالي، ولم ألقِ بالاً لما سيحدث لي في حياتي القادمة، ولكنني أدركت بسرعة أن من أرسلوني إلى هنا هم أناس بائسون خائفون. إنهم خائفون مني؛ لأنهم يخافون من كل شيء ويرهبون كل شيء. أيّ سلطان، حتى لو كان مخلوعاً عن عرشه، لم يكن ليتم إرساله من طرف البلد لطرفه الآخر من أجل أن ينام على حصير بسيط من غير غطاء. ولكن الخوف الكبير فقط هو الذي يستطيع أن يؤدي بالإنسان إلى هذا المستوى من الوقاحة.

قدَّموا لنا في الليلة الأولى طعاماً كان عبارة عن بعض الأرز الجاف والزبادي. فليدم الله النعمة. وأرسل لي والي سَلانيك طعاماً، فأرجعته حيث أتى. ولعدم وجود أدوات المائدة من شوكة وملعقة وكوب أكل الأطفال والصبية ما استطاعوا أن يأكلوه بأيديهم ثم أخلدوا للنوم. وأنا ضممت أريكتين قديمتين باليتين إلى بعضهما البعض ثم نمت عليهما. تم غُلِّقت الأبواب علينا من الخارج. كانت توجد شمعة واحدة صغيرة مشتعلة في غرفتي فقط. تذكرت -والحزن يعتصرني- يوم أن أرسلت كلا من مدحت باشا ومحمود باشا إلى الطائف، وكيف فكرت في جميع ما يمكن أن يحتاجا إليه هناك، وكم بذلت من جهود جبارة لتوفير راحتهما. فالجنود الذين أنزلوني من على العرش كانوا يحملون في عروقهم نفس

الدم التي أحملها في عروقي. فلو كان لديهم عقول تعقل، -حتى لو لم يشفقوا على سلطانهم- أكانوا يتصرفون على هذا النحو تجاه الأبرياء من أفراد أسرته؟ لا يوجد ستارة، والنوافذ والشبابيك مغلقة بإحكام. ولكن بعد عدة شهور استطعنا أن نحصل على إذنٍ بفتح الشباك حتى يتمكن الأطفال من رؤية الشمس واستنشاق الهواء... كان فتحي بك (فتحي أوقيار) هو قائد الكتيبة المكلفة بحمايتنا، وكان ضابطاً لبيباً. كانت علاقته بي وبأطفالي لطيفة كما يجب. أحياناً كان يسألنا عما نحتاج إليه، ويبذل بسرعة كل ما في وسعه لتلبيته، وما لا يستطيع فعله يستقدمه من إسطنبول. ولكن كان تحت إمرة هذا الضابط بعض الضباط والجنود وكانوا يكنون لنا العداء بلا سبب مفهوم. وكانوا ينظرون بنظرات مملوءة غضباً للنوافذ المغلقة ويتجولون في الحديقة بشكل يحمل التهديد".[1]

أثناء حرب البلقان التي اندلعتْ عام ١٩١٣م أصبح الخطر يهدد سَلانيك فتم نقل السلطان وعائلته إلى إسطنبول بعد صعوبة في إقناعه على الرغم من إصراره على عدم الانتقال من هناك.

عاش السلطان عبد الحميد في إسطنبول مُراقَبا أيضا في قصر "بَيْلربَيِي"، وتابع مِن هناك أخبارَ الحرب العالمية الأولى التي حدثت آنذاك. وقال في الأيام التي اندلعت الحرب: "إن الحرب سوف تستمر لفترة طويلة جداً، وسيراق فيها دم العديد والكثير من الأبرياء بلا داعٍ، وستكسِب إنجلترا الحرب عاجلاً أو آجلاً على الرغم من الصعوبة التي ستواجهها". وسأل اللهَ أن تنجح الدولة العثمانية في تجنب دخول الحرب. ولكن كان من الواضح أن الدول الكبيرة ستجر العثمانيين إلى خوض الحرب. وازدادت

1 Bozdağ; a.g.e., s. 119-120

مخاوفه لأقصى درجة حينما دخلت الدولة العثمانية الحرب مؤيِّدة ألمانيا. وتوقع أن الحرب ستنتهي بكارثة على العالم الإسلامي وعلى الدولة العثمانية. وهذا الأمر زاده كربا وحزنا فتوفي مريضاً في ١٠ فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز ٧٦عاماً. أما قبره فبداخل ضريح محمود الثاني الواقع في "جَمبرلي طاش" بإسطنبول.

الذين اتهموه لفترة بأنه مستبد، والذين زعموا أنهم حملة الحرية، وأنهم ينقذون الدولة منه، ملؤوا شوارع إسطنبول من بعده بالمشانق... الذين أتوا من بعده: علقوا على المشانق حتى مؤيديهم بلا رحمة ولا هوادة.

ولكن جاء اليوم الذي ندم فيه من تمالؤا مع العدو لخلعه مِن على العرش، وهاجموه ولعنوه لفترة؛ فأخذوا يَرْثونه من بعد وفاته ويطلبون منه السماح... بمن فيهم محبوه ومعارضوه.

وفيما يلي بعض من أشعارهم المليئة بالندم، والمليئة بالحزن أيضا:

أيها السلطان العظيم! عندما يذكر التاريخ اسمك،

سيوفيك حقك.

كنا نحن الذين افتروا بلا خجل.

افترينا على أكثر سلاطين العصر حنكة سياسية،

قلنا: إن السلطان ظالم،

قلنا: إن السلطان مجنون..

قلنا: لابد من القيام بثورة عليه،

قلنا مالا يقوله شيطان،

وسعينا إلى إشعال الفتنة!

لم تكن أنت المجنون، بل كنا نحن المجانين.

علقنا الآمال على خيط واه

لم نكن فقط سَفَلة، بل كنا بلا أخلاق

فلقد بصقنا على قِبلة الأجداد!

الفيلسوف رضا توفيق

كم مرة تذكرناك

وبطلب العون جئناك

لو أطلقنا صرخة يقتلوننا

يا حسرتنا على الاستبداد القديم يا سلطاني!.

سليمان نظيف

يا رب يا ذا الجلال، ويا خالق البشر!

إن كل الخير بيدك وكذا كل الشر.

فاحكم بالخير في حق السلطان العادل عبد الحميد

هذا الشعب بأحراره وعبيده

لن يرضى بإمام ومرشد سوى عبد الحميد

عبد الحق حامد

يا شهريار عصره المحترم

يا صاحب التاج والعدل يا صاحب الكرم

أنت ذلك السلطان الحكيم ذو الهمم.

كل ما أقوله في مدحك فأنت له أهل

أحرى بك أن تكون الخليفة صاحب الخير والعدل

يحيى كمال

أجدر بنا أن يحكمنا نعشك، لا أنت

فليعد، وليجلس على العرش العثماني تابوتك.

أحمد راسم

ولقد قال السلطان عبد الحميد للاتحاديين المتمردين الذين سلبوه عرشه بالقوة، وظلموه وخلعوه عن عرشه في ٣٠ يوليو ١٩٠٨م، كلمةً شديدة الحكمة وكبيرة القيمة حيث قال:

"إن استطاعوا أن يحكموا الدولة لمدة ١٠ سنوات، فليفرحوا وليقولوا: "تمكنا من إدارة الدولة قَرْنا".[1]

هذه الكلمة قيلت عن رؤية بعيدة وخبرة عميقة تستشف المستقبل، فبعد ١٠ سنوات كاملة من هذه المقولة أصبح الاتحاديون أحد الأسباب لانهيار دولة عظيمة، فتأسس على أنقاضها كثير من الدويلات الصغيرة، ثم انسحبوا من الساحة السياسة. وفي النهاية تركوا الدولة بائسة ومعدمة وورّثوها للأمة المظلومة والشُجاعة في الوقت ذاته.

ط . عرض تاريخي لفترة السلطان عبد الحميد خان الثاني

- ٢١ سبتمبر ١٨٤٢م ميلاد السلطان عبد الحميد الثاني.
- ٢١ أغسطس ١٨٧٦م اعتلاؤه عرش الدولة العثمانية.

1 130 Öztuna; a.g.e., s. 241

- ١٨٧٦م إعلان المشروطية الأولى.
- ١٨٧٦م عقد موتمر دولي لبحث أزمة البلقان في إسطنبول (مؤتمر الترسانة)
- ١٨٧٦م إيقاف دفع مستحقات القروض
- ١٨٧٦م قبول آخر كتاب لمجلة الأحكام العدلية.
- ١٨٧٦م نشر كتاب نامق كمال بعنوان "انتباه" الذي يعد أول رواية أدبية.
- ١٨٧٦م افتتاح مدارس إعدادية داخلية في إزْمِيرْ ومانستير.
- ٢٣ مايو ١٨٧٦ ميلاد ضياء كوك آلب.
- ٢٣ ديسمبر١٨٧٦م إعلان القانون الأساسي.
- ١٨٧٧م الاعتداء الروسي وبداية الحرب الروسية-العثمانية، واحتلال روسيا للبلقان وشرق الأناضول.
- ١٨٧٧م إلغاء مدرسة مَخرج الأقلام بدمجها مع صفوف المدرسة الثانوية، ونقل المدرسة الطبية مرة أخرى إلى كُولْخانه، وإنشاء مدرسة فن الرسم والمعمارية.
- ١٨٧٧-١٨٧٨م توقف الدراسة في دار الفنون والمدرسة السلطانية لمدة سنة.
- ١٩ مارس١٨٧٧م أول اجتماع لمجلس المبعوثان (ظل يعمل حتى ٢٨ يونيو من نفس العام)
- ٢٥ سبتمبر ١٨٧٧م قانون بلدية دارسعادت (تم قبوله بعرض المذكرة الخاصة به في مجلس المبعوثان)
- ٥ أكتوبر ١٨٧٧م قبول قانون بلدية ولاية.
- ١٣ ديسمبر١٨٧٧م تعطيل مجلس المبعوثان لأجل غير مسمى.

- ١٨٧٨م انتهاء حرب ٩٣، وتوقيع معاهدتَي أياستفانوس وبرلين.
- ١٨٧٨م استقلال كل من الصرب، والجبل الأسود، ورومانيا.
- ١٨٧٨م ظهور إمارة بلغاريا.
- ١٨٧٨م ظهور المسألة الأرمنية.
- ١٨٧٨م غارة قصر جيراغان واغتيال علي سعاوي.
- ١٨٧٨م استيلاء إنجلترا على قبرص.
- ١٨٧٨م النمسا والمجر يحتلان البوسنة والهرسك.
- ١٨٧٨م ظهور مسألة مقدونيا.
- ١٣ فبراير ١٨٧٨م إغلاق المجلس.
- أكتوبر ١٨٧٨م استئناف التدريس بدار الفنون السلطانية.
- ١٨٧٩م جمع العملات الورقية التي طبعت في عهده وإعدامها.
- ١٨٧٩م قبول قانون تشكيل المحاكم النظامية.
- ١٨٧٩م تأسيس دائرة مكاتب صبيانية، وإعادة تنظيم هيئة دار المعارف.
- ١٨٧٩م قبول قانون أصول المحاكمات الجنائية.
- ١٨٨٠م الإصلاح الضريبي.
- ١٨٨٠ انتهاء خط سكة حديد يافا - القدس.
- ١٨٨٠م نشر أول رواية قروية وهي رواية "بختيارلق" لأحمد مدحت، وتخريج أول دفعة من دار الفنون السلطانية ومدرسة الطرق والمعابر.
- ١٨٨٠م قبول قانون أصول محاكمات الحقوق.
- ١٣ مارس ١٨٨٠م فتح مدرسة إعدادية للبنات.
- ١٧ مايو ١٨٨٠ وفاة ضياء باشا.

- أكتوبر ١٨٨٠م تخريج أول دفعة من مدرسة الحقوق التابعة لجامعة دار الفنون السلطانية.
- ٢٠ ديسمبر١٨٨٠م تخريج أول دفعة من جامعة دار الفنون السلطانية، ونشر (Journal de la Societede Pharmacie de Constantinople'un)، و تأسيس الجمعية العلمية.
- ١٨٨١م احتلال إنجلترا لمصر. (عام ١٨٨٢م).
- ١٨٨١م تأسيس إدارة الديون العمومية.
- ١٨٨١م تأسيس صف جديد بالمهندِسْخَانه (دار الهندسة) تحت اسم: الفئة الممتازة، وإنهاء أنشطة مدرسة طرق المعابر دار الفنون السلطانية، ودمج كليتي الغابات والمعادن.
- ١٨٨٢م احتلال فرنسا لتونس.
- ١٨٨٢م إعلان قرار المحرَّم (في مجال الاقتصاد)
- ٢ يناير ١٨٨٢م تأسيس مدرسة الصنايع النفيسة، و تعيين عثمان حمدي مديراً لها.
- ١٨٨٣م بدأ إصلاح الجيش العثماني بواسطة هيئة عسكرية تابعة لبروسيا.
- ٢٠ يونيو ١٨٨٤م تأسيس مدرسة الهندسة السلطانية.
- ١نوفمبر ١٨٨٤م بداية تدريب مهندسي مدرسة الهندسة المُلْكية (المدنية) في إحدى غرف "دار الهندسة السلطانية البرية".
- ٢ ديسمبر ١٨٨٤م ميلاد الشاعر الشهير يحيى كمال.
- ١٨٨٥م إلحاق بلغاريا روملي الشرقية بأراضيها.

- ١٨ سبتمبر ١٨٨٥م ضعف السيطرة على المنطقة بعد انضمام روملي الشرقية إلى بلغاريا.
- ١٨٨٦م انتهاء خط سكة حديد "أَضَنَه – مَرْسين".
- ١٨٨٦م تأسيس هيئة تفتيش لمدارس غير المسلمين والأجانب تابعة لوزارة المعارف.
- ١٨٨٦-١٨٨٧م تحويل مدرسة دار المعلمين إلى مدرسة داخلية.
- ١٨٨٧م تأسيس مصنع "يَدِي قُوله" للغاز.
- ٥ فبراير١٨٨٧م انتحار بشير فؤاد.
- ١٨٨٨م منح ألمانيا امتياز إنشاء خط سكة حديد "حيدر باشا- إزْمِيرْ- أنقرة".
- ١٨٨٨م افتتاح مدرسة القديس يوسف الكاثوليكية للطب في بيروت، وتحويل فئة البيطار إلى مبنى مدرسة الحربية.
- ٢ ديسمبر ١٨٨٨م وفاة نامق كمال.
- ١٨٨٩م تأسيس جمعية الاتحاد العثماني (جمعية الاتحاد والترقي).
- ١٨٨٩م إنشاء مدرسة البيطار المُلكية (المدنية)، مدة الدراسة فيها ٤ سنوات والتي تعتمد على التعليم الإعدادي.
- ١٨٩١م نقل مدرسة البيطار الثانوية كمدرسة داخلية إلى مدرسة الحَلْقَلِي الزراعية.
- ١٨٩١م تبديل العمل البدني الإجباري في إنشاء الطرق ببدل نقدي.
- ١٨٩١م إنشاء مصنع غاز "قاضي كُويْ" - (قورباغه لي دَرَه).
- ١٨٩١م افتتاح قسم السجاد في مصنع حركة.
- ١٨٩٢م افتتاح خط سكة حديد حيدر باشا-إزميت.

- ١٨٩٢م إغلاق مدرسة الغابات والمعادن، وإنشاء السلطان عبد الحميد الثاني ورشة لعمل البُوْرسيلينْ في قصر يِلْدِزْ.
- ١٨٩٣-١٨٩٦م عمل خط سكة حديد إسطنبول-سَلانيك.
- ١٨٩٤م تخرّج أول دفعة من مدرسة البيطار والحَلْقَلِي الزراعية، وإنشاء مدرسة سانت ماريا (İmmaculee Conseption)، وأول طبعة لقاموس موسيقى (الاصطلاحات الموسيقية للمعلم كاظم)
- ١٨٩٤م وقوع الأحداث الأرمنية في ساسون.
- ١٨٩٤م انتهاء خط سكة حديد سَلانيك–مانستير.
- ١٨٩٥م وقوع أحداث الأرمن في إسطنبول، وتدخُّل الدول الأجنبية لصالح الأرمن.
- ١٨٩٥م انتهاء إنشاء رصيف ميناء غَلَطة.
- ١٨٩٥م قرار تعيين مُدرِّسين للغة التركية في مدارس غير المسلمين.
- ١٨٩٥م تصنيع البارود الخامل (بدون دخان) في "بارود خانهءِ عامرة" (مصنع البارود).
- ١٤ فبراير ١٨٩٥م اقتراح سعيد باشا الصدر الأعظم بأن تحوي دار الفنون ٥ كليات.
- ١٨٩٦م بدء عصر الأدب الجديد بتولي "توفيق فكرت" لإدارة الصحف الأدبية التابعة لثروة فنون.
- ١٨٩٦م هجوم الأرمن على فرع البنك العثماني لإسطنبول.
- ١٨٩٦م اندلاع تمرد كِريت
- ١٨٩٦م انتهاء خط سكة حديد أسكي شهر-قونيه.
- ١٨٩٧م وصول قوات اليونان إلى كريت، ومهاجمة المليشيات

اليونانية على الحدود العثمانية في رُومَلِي.

- ١٧ أبريل ١٨٩٧م الحرب اليونانية-العثمانية وانتصار العثمانيين.
- ١٨٩٨م استمرار مسألة كريت، وتراجع القوات العثمانية، وإعطاء الحكم الذاتي للجزيرة، وتعيين الأمير اليوناني يورجي واليا عليها.
- ١٨٩٩م منح ألمانيا حق امتياز خط سكة حديد بغداد.
- ١٨٩٩م افتتاح خط سكة حديد عارفية- أدابازرى.
- ١٩٠٠م بدأ إنشاء خط سكة حديد الحجاز.
- ١٩٠٠م انتهاء إنشاء رصيف ميناء إسطنبول.
- ٣١ أغسطس ١٩٠٠م إنشاء دار الفنون السلطانية.
- ١٩٠١م انحلال جمعية الأدب الجديد بإغلاق مجلة "ثروة فنون" بشكل مؤقت، وصدور الطبعة الثانية من القاموس الطبي، وفاة وِدِينْلي توفيق باشا.
- ١٩٠١م ازدياد نشاط العصابات في مقدونيا، وتدخل الدول الكبرى.
- ١٩٠١-١٩٠٨م عمل خط سكة حديد الحجاز.
- ١٩٠٢م عودة تمردات اليمن.
- ١٩٠٢م ضم آلات صنع الصوف والشاياك لمصنع "هَرَكَة".
- ٢٣ نوفمبر ١٩٠٢م نشاط جمعية الثورة البلغارية في مقدونيا.
- ٢٣ نوفمبر ١٩٠٢م تمرد "جمعهء بالا".
- ٢٣ نوفمبر ١٩٠٢م الاستعداد لخطة إصلاح خاصة بشأن مقدونيا.
- ٨ ديسمبر ١٩٠٢م تعيين حسين باشا بسلطات واسعة كـ"مفتش عمومي" على مقدونيا.
- ١٩٠٣م رفع مرحلة الإعدادي إلى ٦ سنوات. (المرحلة الابتدائية)

- ٢-٣ أغسطس ١٩٠٣م تمرد إِيلِينْدَنْ (يوم عيد القديس إليا).
- ٢-٣ أغسطس ١٩٠٣م بداية خطر الحرب العثمانية-البلغارية.
- ٣١أغسطس ١٩٠٣م إنشاء مدرسة الشام للطب.
- سبتمبر ١٩٠٣م برنامج (Mürzsteg): منح الحكم الذاتي لمقدونيا.
- ١٩٠٤ افتتاح رصيف ميناء حيدر باشا.
- ٢١ يوليو ١٩٠٥م تنظيم الأرمن لحادثة القنبلة لاغتيال السلطان عبد الحميد الثاني أمام جامع يِلْدِزْ.
- ١٩٠٦م أحداث العقبة، وأزمة العقبة.
- ١٩٠٨م ضم مصنع بَيكوز للجلد إلى نظارة (وزارة) الحربية.
- ١٩٠٨م تأسيس جمعية اتحاد الصيادلة العثمانيين. وافتتاح بيطرية الجمعية العثمانية العلمية، وتأسيس جمعية الهندسة والمعمار العثماني.
- ٢٣ يوليو ١٩٠٨م إعلان المشروطية الثانية.
- ٥ أكتوبر ١٩٠٨م إعلان ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا-المجر.
- ٦ أكتوبر ١٩٠٨م إعلان رومِ كريت ربطَ الجزيرةِ باليونان.
- ١٧ديسمبر ١٩٠٨م أول اجتماع لمجلس المبعوثان في فترة المشروطية الثانية.
- ١٩٠٩م تمرد الأرمن في "أَضَنه".
- ١٩٠٩م إلزام غير المسلمين بالخدمة العسكرية بدلا من "بدل عسكرية" التي كانوا يدفعونها بدلا من الخدمة العسكرية.
- ١٩٠٩م إنشاء الجمعية الأدبية: "فجر آتي".. صدور قانون الجمعيات.. افتتاح مدرسة طب الأسنان.. افتتاح مدرسة جديدة باسم مدرسة

الغابة العالية.. ضم المدرسة الطبية والمدرسة الطبية العسكرية ونقلهما إلى منطقة حيدر باشا.. تحويل اسم مدرسة "المعلمين النواب" إلى مدرسة القضاة.. ربط مدرسة الهندسة المُلكية بنظارة (وزارة) النافعة ليصبح اسمها المدرسة العالية للهندسة.

- ١٩٠٩م صدور مجلة "المهندس والمعمار العثماني".
- ٢٧ فبراير ١٩٠٩م قبول قانون أصول المحاسبة العمومية.
- ١٣ أبريل ١٩٠٣م تمرد٣١ مارس ١٩٠٩
- ١٩ أبريل ١٩٠٩م وصول جيش الحركة إلى يشيلْكُويْ، وتأمين النظام بوضع حد للاضطرابات التي في إسطنبول.
- ٢٧ أبريل ١٩٠٩م خلع السلطان عبد الحميد الثاني من على العرش، وتولية محمد الخامس بدلا منه.
- ٢٧ أبريل ١٩٠٩م إرسال السلطان عبد الحميد إلى منفى سَلانيك.
- ٢٩ أبريل ١٩٠٩م وصوله إلى سَلانيك وإقامته في قصر "ألاتيني".
- ١٩١٣م حرب البلقان، وخروج سَلانيك عن الحكم العثماني.
- ١٩١٣م نقل السلطان عبد الحميد إلى إسطنبول وإقامته في قصر بَيلربَيِي.
- ١٠ فبراير ١٩١٨م وفاة السلطان بالمرض في قصر بيلربيي.

يـ . الألبومات الخاصة بعصر السلطان عبد الحميد الثاني

1. Hamidiye Süvari Alayları ile bazı aşiret reislerinin resimleri (20 foto Küt. No: 91112)
2. Yıldız Hastanesi'nde tedavi edilen mecruhat (75X527 420 foto Küt. No: 91300)

3. Donanma-ı Hümayun (17 foto) (Num. Yok)
4. Bahriye, Müze, Rasathane ve Kütüphanesi, Izmit-Ankara Demiryolu (164 foto)
5. Yalova Kaplıcaları (9-17 foto) (Num. Yok)
6. Haliç'te Ansoldo Fabrikası tamiratı (19 foto)
7. Sirkeci Demiryolu Istasyonu (8 foto)
8. Kimyager Janni tarafından Beyoğlu'nda tesis edilen Dârüttahlil (3 foto)
9. Bakteriolojihanenin haricî ve dahilî görünüşü (27 foto Küt.No: 92248)
10. Çiçek Aşısı 1297 senesi telkih cederi ameliyathanesi (8 foto Küt. No: 90518)
11. Hamidiye Etfal Hastahanesi tedavileri (24 foto Küt. No:90542)
12. Hamidiye Etfal Hastahanesi ameliyatları (53 foto Küt. No: 91279)
13. Hicaz Demiryolu için Kraus Fabrikasınca inşa olunan Lokomotifler(32X16, 2 foto)
14. Hicaz Demiryolu (4 Albüm Toplam 247 foto Küt. No: 90523)
15. Hicaz Demiryolu Maan Resmi Küşadı (3 Albüm Toplam 75 foto Küt. No: 90520)
16. Istanbul Rıhtım Şirketi, Terkos Su Şirketi Resimleri (2 Albüm) (Num. Yok)
17. Ertuğrul-Söğütlü Vapurları ve Hamidiye Kruvazörleri (20 foto)
18. II. Abdülhamid Hanın Atları (58X48 4 foto Küt. No: 0 90830)
19. Çifteler, Sultan Çiftlikleri atları, köpekleri (20 foto)

20. Barut Fabrikası (20 foto Küt. No: 90972)
21. Kâğıt Fabrikası (35 foto Küt. No:91540)
22. Mavzer Fişek Fabrikası (22 foto Küt: No: 91092)
23. Hereke Dokuma Fabrikası (50 foto Küt. No: 90453)114
24. Bank-i Osman-i Şahane ve Çini Fabrikası (38 foto Küt. No:90525)
25. Müze-i Hümayun (23 foto Küt. No: 90518)
26. Bez Fabrikası (Küt. No: 91157)
27. Tütün Rejisi Idaresi ve Fabrikası (28 foto Küt. No: 91549)
28. II. Abdülhamid Hanın oğlu Şehzade Abdürrahim Efendinin sünnetinde sünnet edilen çocuklar (322X40 65 foto Küt. No: 90827)
29. Kapalı Çarşı 1310 Zelzelesi tamiri (87 foto Küt. No:90863)
30. Dârülâceze Irzararhane (5 Albüm 15 foto Küt. No: 90620)
31. Fes ve Melbusat-ı Askeriyye Fabrikası (60 foto Küt. No: 91014)
32. Halkalı Ziraat ve Baytar Mektebi (11 foto Küt. No: 90491)
33. Haydarpaşa Askerî Tıbbiye Mektebi (20 foto Küt. No: 90558)
34. Heyberliada Bahriye Mektebi (11 foto Küt. No: 90401)
35. Tamir Edilen Çeşmeler (13 foto Küt. No: 90823)
36. Ispermecet Mumu Fabrikası (12 foto Küt. No: 90616)
37. Kâğıthane Memba Suları ve Çeşmeleri (72 foto Küt. No: 90545)
38. 1307 ve 1309 Mektep Talebelerine verilen ziyafet
39. Numune Çiftliği (Küt. No:90838)
40. Ortaköy Kasr-ı Hümayunda Esliha-i Atika Müzesi (25 foto Küt.No: 90599)

41. Üsküdar ve Kadıköy Su Şirketinde Bend Resmi Küşadı (Küt. No: 90472)
42. Selanik'te Hamidiye Hastahanesi (49 foto Küt. No: 90551)
43. Selanik'te inşa olunan rıhtım ve liman (Küt. No: 90583)
44. Mekke-i Mükerreme'de inşa olunan misafirhane-i hümayun (6 fotoKüt. No: 90543)
45. Bursa Harir-i Darüttahlil (Ipekçilik Mektebi) (11 foto Küt. No: 91316)
46. Bursa Ziraat Mektebi (Hamidiye Amelî Ziraat Mektebi) (9 foto Küt. No: 90546)
47. Kütahya'da resmi küşadı yapılan cami (Küt. No: 90544)
48. Bolu'da inşa olunan cami (Küt. No: 90866)
49. Şam Mülkiye Idadî Mektebi (6 foto Küt. No: 90876)
50. Şam'da Hamidiye Hastahanesi (22 foto Küt. No: 90586)
51. Şam'da tamir olunan Camii-i Emeviyye (18 foto Küt. No: 90580)
52. Kudüs'e Berk Süleymaniye'den memba suyu getirilmesi (16 foto Küt. No: 90575) 115
53. Tayf Deniz Feneri (9 foto Küt. No: 90564/2)
54. Çini Fabrikasında yapılan eşyalar (40 foto Küt. No: 90525/4)
55. Yozgat Saat Kulesi (1 foto Küt. No: 90873/1)
56. Beyrut Limanı Inşaatı (1 foto Küt. No: 90662/3)
57. Kamerun'da inşa olunan Karantinahane (6 foto Küt. No: 90587/1
58. Adapazarı Hamidiye Mektebi (3 foto Küt. No: 90578)
59. Mülhakatta inşa olunan köprülerin resimleri (7 foto Küt. No: 90873)
60. Kastamonu Saat Kulesi (2 foto Küt. No: 904069

61. Izmir Kasaba Demiryolu resimleri (40 foto Küt. No: 90497)
62. Çifteler Çiftliği (16 foto Küt. No: 90413)
63. Çifteler Harası (11 foto Küt. No: 90442)
64. Anadolu Demiryolu (Haydarpaşa-Bilecik) (29 foto Küt. No: 90490)
65. Balıkesir'de yapılan faydalı binalar (39 foto Küt. No: 90582)
66. Bahr-i Ahmer'de Muha,Ubuleyl ve Cebel-i Tayr Deniz Fenerlerinin Inşası (25 foto Küt. No: 90546)
67. Dedeağaç'ta tesis olunan hayırlı binalar (18 foto Küt. No: 90581)
68. Yıldız Sarayı ve Hamidiye Camii (45 foto Küt. No: 90836)
69. Yedikule Gazhane Resimleri (Küt. No: 90830) 70. Salkımsöğüt'te Tramvay Caddesi açılışı (Küt. No: 9838)

وهذه الألبومات موجودة في مكتبة جامعة إسطنبول، وقد أدرجنا من أسمائها ما كان يحمل ميزة الوثيقة...

المصادر

١.الآثار البحثية

1. AKAD, M.Tanju; Osmanlıların Stratejik Sorunları, Kastaş Yayınları, Istanbul 1995.
2. AKGÜNDÜZ, Ahmed; Bilinmeyen Osmanlı, OSAM Yayınları, Istanbul 1999.
3. ARPACI, Seyfullah, Sultan II. Abdülhamid Bibliyografyası, Basılmamış Yüksek Lisans Tezi, Erciyes Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Kayseri 2003.
4. AYDEMIR, Şevket Süreyya; Makedonya'dan Orta Asya'ya Enver Paşa I-III, Istanbul 1970-1972.
5. AYDIN, Mehmed; Sultan II. Abdülhamid'in Liderlik Sırları, Izci Yayınları, Istanbul 1998.
6. BOZDAĞ, Ismet; II. Abdülhamid'in Hatıra Defteri, Pınar Yayınları, Istanbul 2000.
7. DABAĞYAN, Levon Panos; Sultan Abdülhamid Han Ve Ermeni Meselesi, Kum Saati Yayınları, Istanbul 2001.
8. DEMIR, Ömer; Sosyal Bilimler Sözlüğü, Vadi Yayınları, Ankara 1993.
9. ERARSLAN, Cezmi; II. Abdülhamid ve Islâm Birliği, Ötüken Yayınları, Istanbul 1992.
10. HASLIP, Joan; II. Abdülhamid Han, Terc.: Zeki Doğan, Fener Yayınları, Istanbul 1998.
11. KARPAT, H.Kemal; Islâmın Siyasallaşması, Istanbul Bilgi

Üniversitesi Yayınları, Istanbul 2004.

12. KOCABAŞ, Süleyman; Sultan II. Abdülhamid: Şahsiyeti ve Politikası, Vatan Yayınları, Kayseri 1995.

13. KODAMAN, Bayramı; II. Abdülhamid Devri Doğu Anadolu Politikası, TKAE Yayınları, Ankara 1987.

14. KOÇU, Reşat Ekrem; Osmanlı Padişahları, Istanbul 2000.

15. KOLOĞLU, Orhan; Avrupa Kıskacında Abdülhamid, Iletişim Yayınları, Istanbul 1998.

16. LEWIS,Bernard; Modern Türkiye'nin Doğuşu, TTK Yayınları, Ankara 1970.

17. ORTAYLI, Ilber; Imparatorluğun En Uzun Yüzyılı, Iletişim Yayınları, Istanbul 1999.

18. OSMANOĞLU, Ayşe; Babam Sultan Abdülhamid (Hatıralarım), Selçuk Yayınları, Istanbul 1986.

19. OSMANOĞLU, Şadiye; Hayatımın Acı Tatlı Günleri, Bedir Yayınevi, Istanbul 1966.

20. ÖKE, Mim Kemal; II. Abdülhamid, Siyonistler ve Filistin Meselesi, Kervan Yayınları, Istanbul 1982.

21. ÖKE, Mim Kemal; Saraydaki Casus; Gizli Belgelerle II. Abdülhamid Han Dönemi ve Ingiliz Ajanı Yahudi Vambery, Hikmet Neşriyat, Istanbul 1991.

22. ÖKE, Mim Kemal; Sultan II. Abdülhamid ve Dönemi, Doğuş Matbaası, Istanbul 1983.

23. ÖKE, Mim Kemal; Vambery, Belgelerle Bir Devletlerarası Casusun Yaşam Öyküsü, Istanbul 1985.

24. ÖRIK, Nahid Sırrı; 150 Yılın Türk Meşhurları, Istanbul 1953.

25. ÖZTUNA, Yılmaz; Büyük Türkiye Tarihi, Cilt 7, Ötüken Yayınları, Istanbul 1978.

26. SARIYILDIZ, Gülden; Hicaz Karantina Teşkilâtı (1865-1914), IÜEFTBE Basılmamış Doktora Tezi, Istanbul 1989.

27. SIRMA, Ihsan Süreyya; Osmanlı Devleti'nin Yıkılışında Yemen Isyanları, Konya.

28. STODDART, Dr. Philip H.; Teşkilât-ı Mahsusa, Çev.;T. Demirel, Arba Yayınları, Istanbul 1993.

29. TAHSIN PAŞA; II. Abdülhamid Han: Yıldız Hatıraları, Boğaziçi Yayınları, Istanbul 1996.

30. TEKELI, I. ; ILKIN, S.; "Ittihat ve Terakki Hareketinin Oluşumunda Selanik'in Toplumsal Yapısının Belirleyiciliği", Türkiye'nin Toplumsal-Ekonomik Tarihi (1071-1920), Ankara 1980. (Yayınlayan: O.Okyar – H.Inalcık)

31. ULUÇAY, Çağatay; Padişahların Kadınları ve Kızları, Ankara 1992.

32. UZUNÇARŞILI, Ismail Hakkı; Mekke-i Mükerreme Emirleri,Ankara 1972.

33. WOODS, Sir Henry, Türkiye Anıları, Çev.; Fahri Çoker, Milliyet Yayınları, Istanbul 1976.

٢. المقالات

1. AKARLI, Engin; "II. Abdülhamid: Hayatı ve Iktidarı", Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 2, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999.

2. BEYDILLI, Kemal; Osmanlı Devleti Tarihi (1876-1920 Arası), Cilt 1, IRCICA, Istanbul 1999.

3. DERINGIL, Selim; "Sultan II. Abdülhamid Han'ın Dış Politikası", TCTA, Cilt 2, Iletişim Yayınları, Istanbul 1991.

4. ERARSLAN, Cezmi; "II. Abdülhamid Han", Osmanlı Ansiklopedisi, Ağaç Yayınları, Cilt 6, Istanbul 1993.

5. EREN, Güler; "II. Abdülhamid", Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 12, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999.

6. GEORGEON, François; "II. Abdülhamid" Osmanlı Ansiklopedisi,Cilt 2, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999.

7. KODAMAN, Bayram; "II. Abdülhamid", DGBIT, Cilt 12, Çağ Yayınları, Istanbul 1990.

8. KODAMAN, Bayram; "II. Abdülhamid Hakkında Bazı Düşünceler", Osmanlı Ansiklopedisi, Cilt 2, Yeni Türkiye Yayınları, Ankara 1999.

9. KURAN, Ercüment; "II. Abdülhamid Han'ın Büyük Devletlere Karşı Uyguladığı Siyasetin Esaslar", IÜEF II. Abdülhamid Han Dönemi Semineri, IÜEF Yayınları, Istanbul 1994.

10. KÜÇÜK, Cevdet; "II. Abdülhamid" DIA, Cilt 1, TDV Yayınları, Ankara 1993.

11. ÖZTUNA, Yılmaz; Sultan "II. Abdülhamid Han", Türkiye Gazetesi, 23 Nisan 1991.